المكتبة الثقافية

السّيَر الشعبيّة العرَبيَة

فاروق خورشيد



المكتبة الثقافية
٤٤١

السير الشعبية العربية

فاروق خورشيد



الهيئة المصرية العامة للكتاب
١٩٨٨

الاخراج الفنى :

راجية حسين

الاهـــــــداء

الى الصديق الدارس المحقق

الدكتور / حسين نصار

شرفت هذا البحث حين لخصــته وقدمته مشكورا فى مهرجان الجنادرية ولست أجد الا أن أهديه اليك ٠

تحية تقدير ومحبة

فاروق خورشيد

السير

الشعبية

العربية

- ١ -

يطلق الباحثون فى الأدب الشعبى العربى مصطلح (السير الشعبية العربية) على مجموعة من الأعمال الروائية الطويلة ، ذات سمات فنية متشابهة ، وذات أهداف ورؤى فنية متماثلة ، بحيث تكون فى مجموعها صنفا أدبيا متميزا ، لا يخضع لقوانين العمل الروائى المعروفة خضوعا كليا بحيث يمكن لنا أن نسميه رواية ، ولا يخضع فى نفس الوقت لقوانين الملاحم الشعرية المعروفة خضوعا كليا بحيث يمكن لنا أن نسميه ملحمة . ومن هنا خرج هذا المصطلح ليفى بالحاجة الى تعريف خاص ينطبق على هذه الأعمال الأدبية المتميزة ، فيحددها ، ويتحدد فى نفس الوقت بها .

ولفظ السيرة فى الأصل يطلق على ما نسميه

اليوم بالتراجم · فالسيرة هى قصة حياة ، ومعنى الكلمة متسلسل من الطريق أو المسلك وأصلها جميعا (سير) أى سلك · وصيغة الجمع لسيرة هى سير ·

وقد أولع العرب بالأنساب ومن هنا كان اهتمامهم فى تآليفهم الأولى منصبا على السير والمغازى ، أما السير فهى تراجم حياة أبطال العرب وملوكهم وشعرائهم . أما المغازى فهى رصد لأيامهم ومعاركهم التى شغلت حياتهم قبل الاسلام(١) ·

ـ ولا نستطيع ان نسمى هذه السير والمغازى تاريخا بالمعنى المعروف ، فقد اختلط فيها الشعر بالنثر ، واختلط فيها موقف الراوى أو الحافظ أو الجامع أو المؤلف ـ فى كل مرحلة من مراحل تداول الخبر ـ بصلب الخبر نفسه · بحيث غدا الخبر موجها لصالح القبيلة وفخرها، لا محققا من الناحية التاريخية ، أو محايدا حيادا علميا · وعندما جاءت مرحلة التأليف التاريخى ارتبطت مؤلفات السير والأيام بمجالس السمر ، فحفلت بما حفلت به كتب السمر من شعر وحكايات وأخبار وقصص ، وخاصة أن الكثير منها ذكر أنه كتب فى مجالس سمر معاوية(٢) ·

ويلتفت الدكتور عبد الحميد يونس الى هذا فيقول عن السير :

(هى أوسع مجالا من مصطلح ترجمة حياة ، لأن هذا المعنى الأخير يقتصـــر على تتبع مراحل حياة المترجم له وأعماله وآثاره وكتبه ، ولأن الســـيرة تستوعب الحكمة والنهج ، وتحقق النموذج والمثال(٣) وبهذا فهى تقترب من مصطلح السيرة المتداول ، بقدر ما ترتبط بحياة انسان ما ، ثم تبتعد عن المصطلح قدر بعدها عن الالتزام بالحيادية ، وحقائق التاريخ الثابتة والمعروفة فهى قرب من هذه الناحية الى الابداع الفنى منها الى التدوين التاريخى الصارم)

الا أن الدكتور يونس يرى أن الأصـــل فى مصـــطلح (ســـيرة) هو الســيرة النبوية ، ويقول فى تعـــريف المصطلح (هى الترجمة المأثورة للنبى صلى الله عليه وسلم، ثم اصبحت تدل على ترجمة الحياة بصفة عامة) . وهو افتراض قد يكون صـــحيحا فى الضـــمير الشعبى الذى اعتبر النبى صلى الله عليه وسلم بطله الأوحد ، وافرده بصفات تضـــعه فى منزلة مميزة وخاصـــة بين أبطاله الشعبيين ، الا انه من الناحية التاريخية لابد أن نقف عند استعمال المؤرخين المسبق لمصطلح (سيره) فى تأليفهم عن أخبار العـــرب فيما عرف بالســـير والمغازى .. ويقول الدكتور يونس :

(كان من الطبيعى أن يحتفل الابداع الشعبى بسيرة النبى صلى الله عليه وسلم وهى محفوظة ومرددة فى البيئات

وفى العواصم وبخاصـــــة فى الاحتفال بالمولد النبوى أو الهجرة أو الاسراء والمعراج) ··

فهو هنا يصف واقعا شعبيا موجودا ، ويحاول أن يجعله اصـــلا تاريخيا ، ونحن وان اختلفنا معه فى هذا الاتجاه ، الا أننا نســـلم معه بما ولده منه من رؤية لنشأة الســـير الشـــعبية الأخرى ، اذ يقول :

(واجتذب الوجدان الشعبى بعض الشخصيات التى عدها مثلا يعمـــل على تحقيق القيم الدينية والقـومية والاجتماعية · ومن هنا انتشـــرت طائفة من الســـير الشعبية يقوم محورها على بطل أو مجموعة من الأبطال · وهذه الســـير الشـــعبية دون بعضـــها وطبع ونسب تأليفها الى مبدع واحد أو اكثر ، ومع ذلك ظلت تنشـــد وتردد على الجماهير فى المناســـبات العامة · وليســـت الســـيرة مقصورة على الواقع ، ولكنها تجنح فى أكثر حلقاتها الى الخيال ··)(٤)

فالدكتور يونس يرصد الســـير الشعبية من حيث رواجها الشـــعبى ، ومن حيث تأصـــل عادة الاستماع اليها والى رواتها وشـــعرائها وحكائيها فى المناســـبات والاحتفالات الشعبية والدينية المتعددة ، الا أن هذا الرصد لا يحدد لنا بدايتها التاريخية ، أو مرحلة أبداعها فى الضمير

الأدبى العربى ، والضـمير الشعبى العربى على السواء ·· فقد يكون الأمر أن العرب عرفوا السـير ، وتناقلوها ، ودونوا فيها ايامهم واخبار حـروبهم ، كما دونوا فيها انسـابهم وسـير ابطالهم وملوكهم ·· فلا تكون السير الشعبية احتذاءا للسـيرة النبوية وامتدادا لها ، وانما تكون السـيرة النبوية واحدة من أشـهر واهم السـير الشـعبية العربية التى سـارت على مثال سـابق ، واحتذت نماذج معروفة ومتداولة قبلها ·· ويسـاعدنا على هذا الرأى أن أول كتاب فى السـيرة النبوية وهو سيرة ابن اسـحق كتاب سـبوق فى منحى تاليفه بكتب اصـحاب السـير الأخـرى ابتداء من دغفل الذهلى النسـابة وحتى عبيد بن شـرية والصـفدى وعوانه وحماد وغيرهم ممن سـبقوه زمنا ، اذ أن ابن اسـحق توفى كما يقول صاحب الفهرست سنة خمسين ومائة(٥) ·

الا أنـه يتفق مع منهـج السـير الشعبية والسـير بعامة بانه ليس كتابا تاريخيا محققا ، وانما لعب الخيال فيه ، ودخله الوضع وشابه الخطأ(٦) ·

ولهذا فنحن نخـرجه من اطـار كتب التاريخ ، الى اطار كتب السـيرة التى قلنا أنها مرحلة ابداعية الى حد كبير · وليست تدوينا محققا وثابتا وهذا مايجعلها سيرة بمفهومنا للسير الشعبية العربية ، بل لعلها أهم هذه السير الشعبية العربية ، وأن احاطها من القداسة ماجعل

مؤرخو الأدب الشـــعبى يخرجونها من اطار سير الأبطال والملوك تقديرا لصاحب الســـيرة محمد عليه السلام ٠ ويخرجونها من مجال البحث الأدبي أو البحث الشـــعبي على السواء بالسكوت عنها ، والاكتفاء بالاشارة اليها ٠

واذا كان الدكتور عبد الحميد يونس يذهب الى جعل السيرة النبوية هى مصـــدر الســـير الشـعبية ومافيها من فن قصصى ، فان السيوطى يذهب بها الى دنيا العلوم المستنبطة من القرآن الكريم ، فيذكر فى الفصل الذى عقده للحديث عن هذه العلوم أن القرآن الكريم ٠٠ (٠٠ تلمحت طائفة مافيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم حتى ذكروا بدء الدنيا وقول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص(٧) ٠

ولا شـــك أن هذا أصـــل من أصـــول الســـير فى هذه الدنيا الرحبة التى فتحها القرآن الكريم أمام المطل من خلال قصصه على الأمم البائدة وأخبارها وأخبار ملوكها وأنبيائها ، والتى توســـع رجال التفســـير فيها فأضفوا عليها مما جمعوه من أخبار وحكايات وقصـص موروثا كبيرا وضـــخما مما تبقى فى الذهن العربى من مأثوراته الشـــعبية قبل الاسلام ، وجلها مأثورات ســـامية تربطه بالموروث الســـامى فى أرحب صـــورة وأثراه ٠٠ الا أن هذا المصـــدر يقع فى الخلفية الفنية من الســير الشعبية ولا يقع فى صـــلبها ، فأبطالها جميعا أبطال لهم ارتباط

تاريخى واضح بحقبة ما قبل الاسلام مباشرة ، وحقبة ما بعد الاســـلام وتكون الأمة الاســـلامية بشـــعوبها المتعددة أو حتى مراحل قـــريبة من التاريخ الاســـلامى المعروفة ·· الا أن قصـــص القرون الســـالفة والأمم الخالية ـ كما يسميها السيوطى ـ لاشـــك تلعب دورا هاما فى تربية الوجدان الشـــعبى ، وفى اذكاء روح الابداع الفنى وتطويره وتهذيبه ، وتمهده لمرحلة ابداع الســـير الشعبية العربية بصورتها الفنية المتكاملة ··

ويذهب باحث آخر معاصـــر وهام هو الدكتور محمد مندور الى مصـــدر آخر للســـير الشعبية ، ولعله من الباحثين الســـباقين فى التفرقة بين الأدب الشعبى ، وبين الأدب الرســـمى الذى أســـماه هو ـ بحق ـ باســـم الأدب الفنى ، فيقول فى حديثه عن فن الشـــعر العربى :

(فالأدب العربى الفنى لم يعرف من فنون الشـــعر المعروفة فى الآداب العالمية غير فن واحد هو الفن المعروف باســـم (الشـــعر الغنائى) أى شـــعر القصائد ، دون الفنين الآخرين وهما : فن الملاحم ، وفن الشعر التمثيلى ، وان يكن الأدب الشعبى قد كان أكثر تنوعا وأوسع آفاقا من الأدب الفنى الذى ظل حبيسا فى الآفاق التى رســـمها أدب الجزيرة العربية منذ العصـــر الجاهلى ·· فالأدب العربى لم يلبث أن انتقل مع اســـلام اللغة العربية الى أقطار مترامية خلف حدود الجزيرة ·· ولم تقنع الشعوب

الجديدة التى اتخذت العربية لســـانا ، انما رسم أدب الجـــزيرة من مجالات ونماذج واصــــول وقيود ، لأن بيانات تلك الشعوب ، وحاجاتها النفسية كانت تختلف عن بيئة الجزيرة وحاجاتها ، ولذلك ترى الشعوب التى تعربت فى العراق والشـــام ومصر وشـــمال أفريقيا ، تخلق لنفســـها الملاحم الشـــعبية التى لا تنسب لشـــاعر معين بل يشـــترك فى تاليفها والاضـــافة اليها عدد من الشعراء الشـــعبيين المجهولين ، منهم الشـــاعر فحسب ، ومنهم الشـــاعر والمنشد والعازف على الربابة فى وقت واحد ٠

وبفضـــل هـــؤلاء الشعـــراء الشـــعبيين المجهولين تمتعت تلك الشـــعوب بما لدينا اليوم من ملاحم شعبية مثل :

ملحمة عنترة ، وملحمة ابى زيد الهلالى سلامة ، وملحمة الظاهر بيبرس ، على نحو ما تمتعت بالقصص الشعبية التى اكتسبت شـــهرة عالمية مثل قصص الف ليلة وليلة (٨)) ٠

فهو يذهب هنـــا الى أن الســـير الشـــعبية وليدة مؤثرات غير عربية ، أو غير جزيرية ان صح التعبير ، وانها وليدة حاجة الشـــعوب الداخلة الى الاسلام الى أدب يلائم حاجاتها (البيانية) وحاجاتها (النفســـية) ولا يرتبط بصـــورة الشـــعر الغنائى العربى التقليدية ٠

ورغم أن الدكتور مندور يورد فى عبارته هذه الكثير من القضايا التى تحتاج الى مناقشة الا اننا نقف عند تسميته لهذه الأعمال باسم الملاحم الشعرية ، ونقف أيضا عند ربطه لها بحاجات الشعوب غير الجزيرية البيانية والنفسية(٩) ٠

فهذه الأعمال اعمال نثرية أولا وقبل كل شىء ، وورود الشعر فيها له وظيفته التى سنتحدث عنها فيما بعد ، ولكن سيرة عنترة وسيرة الظاهر بيبرس لا تعتمد على الشعر اعتمادا مافى سياقها الفنى ، أو بنائها (البيانى) ، أو فى تركيبتها الروائية ، انما هى أعمال تعتمد على فن السرد والحكى ، وتقوم فى جوهرها على النثر بصورته القصصية المميزة فى السيرة الشعبية ، وفى قصص ألف ليلة وليلة أيضا على وجه التحديد ٠

وقد تنفرد السيرة الهلالية دون باقى السير بأنها سيرة تروى شعرا ، ويتم السرد فيها عن طريق الحوار الشعرى الشعبى الا أن ما نجده فى السيرة الهلالية لا يتكرر فى غيرها من السير ٠٠ ومراجعة سريعة لهذه السير ستؤكد ان السرد فيها يقوم على النثر ، وعلى النثر وحده ٠ واذا ما انتهينا من تقرير هذه الحقيقة، نقف عند تسمية شعر الهلالية باسم شعر الملاحم ٠ والنظم الشعرى للحديث ليس من شعر الملاحم فى شىء ٠٠ وعدم وجود الملاحم فى الشعر العربى له أسبابه

وبدائله ، ولايجدى بحال أن نطلق اسم الملحمة على عمل منظوم لمجرد أنه يحكى حكاية متداولة ٠

فالحس التراجيدى الذى يخلق الملاحم مفقود أصلا ، واللجوء الى الصـــورة فى نقل المشهد الدرامى غير وارد فى الأغلب الأعم ٠ والشعر العربى القديم قد عرف شــعر المحاورات ، ووجدت مقطوعات كثيرة منه فى كتب الأخبار القديمة كقصة مضاض ومى فى التيجان لوهب بن منبه ، وكغيرها وشبيهاتها فى حكايات وأخبار عاد وهو ولقمان وغيرها من القصص المتداول ٠ الا أن الشـــعر التمثيلى بشـــكله المحدد فى أدب الأغريق لم يرد فيما جاءنا من شعر العرب القدماء ٠

وبالقطع هناك أسباب فكرية واجتماعية وراء هذا ، وليست المسألة مسألة ظروف بيئية فرضـــتها بيئة الجزيرة وحدها ٠ وربما كانت المسألة أن الدكتور مندور حاول أن يكشف صورة للشعر العربى غير تلك الصورة التقليدية ، ولهذا بحث عن تأثيرات البيئات الجـــديدة التى دخـل أصـــحابها الى الاســـلام ٠ ومنحى البحث نفسه مشروع وجيد ، الا أن السير الشـــعبية فى غالبها الأعم ترتبط بالجزيرة العربية نفســـها ، تدور أحداثها فى بيئة هذه الجزيرة ، وتختار أبطالها من أبنائها ٠ نجد هذا واضحا فى سيرة عنترة العبسى ، وفى سيرة الزير سالم ، وفى سيرة حمزه البهلوان ، بل ونجده فى بدايات سيرة ذات الهمة ،

وكذلك فى السـيرة الهلالية ، ونكاد نستطيع أن نقول أن جنوب الجزيرة العربية هو المنبع الأصـلى لسيرة سيف ابن ذى يزن ، ولا يبتعد عن الجزيرة وأبطالها من السـير الا سيرة الظاهر بيبرس وسـيرة على الزيبق ، وحتى فى هاتين السـيرتين ليسـت أرض الجزيرة العربية بعيدة عن أحداثها ، وحركة الابطال فيها ..

ونستطيع أن نقول ان شخصية البطل فى هذه السـيرة ارتبطت بمعنى الفتوة العربى ، وأخذت مثلها وقيمها من مثل وقيم جزيرية بالدرجة الأولى ، وهى أن أضفت عليها المبادىء الاسلامية والخلق الاسلامى الا أن الجذور العربية ظلت واضحة فى خلق الابطال وسلوكياتهم .. بل أن بعض هذه السـير ماكان يمكن أن توجد أصـلا الا لارتباطها بقضايا جزيرية ان صـح هذا التعبير ، فقضـية اللون والحرية فى عنترة ، وقضية المرأة ودورها فى ذات الهمة ، وقضـية العلاقة بين الفرس والعرب فى حمزه البهلوان وفيروز شاه ، وقضـية الهجرة من الصحراء فى الهلالية، وقضـية تحرر اليمن فى سيف بن ذى يزن ، قضايا ترتبط كلها بواقع معاش وممارس فى الجزيرة العربية قبل الاسلام، وبعده كذلك ..

والذى نريد أن نذهب اليه هو أن البحث عن صور أخرى للشـعر العربى وخاصة الشـعبى منه ، ليس مجاله تغيير صورة أعمال نثرية واطلاق اسم الملاحم عليها

فلن يفيد هذا الشعر العربي • اذ ان الشعر العربى فى تأثره بالبيئات الجديدة كالأندلس قدم لموشــحات كبديل مثمر ومجدد للصورة التقليدية للشعر العربى (الفنى) •

كما ان الشاعر العربى الشعبى وجد متنفسه فى التمرد على قوالب الشعر الرســمى فى فنون الزجل والزكالش والمواليا والقوما والكان كان والموال والدوبيت ، وغيرها من الصور التى ظهرت فى أكثر من بيئة اجتماعية وجغرافية من البيئات التى عاش فيها الشاعر العربى (الرسمى) والشعبى على السواء ••

هذه الافتراضات اذن لها وجاهتها ، ولكنها ليســت هى الأصل فى وجود هذا الفن العربى الشعبى • قد يكون لنموذج السيرة النبوية أثره ، ولكنه ـ كما قلنا ـ اثر تال لا مجال لاعتباره الأصل الأسبق فيها ، وقد يكون لقصص القرآن الكريم وما أورده المفسرون حولها مما وعته الذاكرة العربية الشــعبية من حكايات وقصص أثره ، ولكنه ـ كما قلنا ـ لا يصلح منطلقا رئيسيا وجذريا لوجود هذا الفن •

وقد تكون لمحاولات الشعوب الاسلامية غير الجزيرية فى خلق فن يتلائم معها ومع رؤيتها الفنية المغايرة اثرها ، ولكنها افتراضية مردود عليها ، ولا تصلح أن تكون نقطة ثابتة فوق أرض صلبة تتيح لنا البحث الموضــوعى عن اصول هذه السير وجذورها الفنية •

والسير الشعبية ـ التى تحت أيدينا الى الآن ـ ليست تسجيلا تاريخيا لحياة فرد أو لحياة قبيلة أو لحياة فئة ، بل هي عمل ابداعي يعتمد على الخيال ، والصياغة الروائية ، والرؤية الفنية للبطل وللاحداث · ودخول الابداع فيها يخرجها من التاريخ ، كما يخرجها من أن تكون من فن التراجم للاشخاص أو للفئات(١٠) ·

فهى ليست تاريخا تحاسب كما تحاسب كتب التاريخ وليست تراجما تحاسب كما تحاسب كتب التراجم ·· وهى فى نفس الوقت ليست ملاحما شعرية ، اذ أن الشعر فيها أداة وليس أصلا · كما أن بناءها الفنى ليس بناء الملاحم ، وتكوين أبطالها يختلف اختلافا جذريا عن تكوين أبطال الملاحم · ولا يضيف اليها فى شيء أن نستعير لها اسم فن ازدهر فى بيئة أخرى وعند شعوب غير شعبها ··

فهى من الناحية الفنية لا تخضع خضوعا كليا لقوانينها الفنية ، وهى كذلك لا تخضع خضوعا كليا لقوانين الرواية وان كانت تأخذ القالب الروائى دون التزام بحبكة موحدة، أو بالتعرض لقطاع موحد مامن حياة فرد أو مجموعة أو مكان انما هى آخر الأمر أعمال نثرية ، لها قالبها الخاص ، ولغتها الخاصة ، وفنيتها الخاصة ، كما أن لها موضوعاتها المتميزة التى انفردت بالتصدى لها · وهى أيضا ليست من الأعمال الأدبية الرسمية التى

رصدها النقاد العرب الأوائل واحتفوا بها لأنها فى حقيقتها أعمال شعبية ، استجابت لحاجات فنية شعبية ، وعكست قضايا شعبية بالدرجة الأولى ·· وان لنا أن نسأل ·· ماذا نقصد بتسميتها أعمالا شــعبية ، وماذا يعنى كونها أدبا شــعبيا بصفة عامة ، وقصـــصا شعبيا على وجه التخصيص ؟ ·

ـ ٢ ـ

يستعمل عامة المثقفين ، وبعض الدارسين المتخصصين مصطلح الأدب الشعبى اســتعمالا غير دقيق حتى اختلط الأمر فيه ، وشابه عند الكثيرين نوع من الغموض الذى يؤدى الى النفور ، واساءة وضعه كفن معبر عن جماهير الشعب وعن ضميرها الحى • ففى تصور البعض ان الأدب الشعبى مصطلح يطلق على الأدب المكتوب بالعامية ، فكل ما كتب بالعامية عندهم هو (فولكلور) أو أدب شعبى •

ويهذا جمعوا فى مفهوم واحد بين مصطلحين متغايرين وأن كانا متداخلين ، هما مصطلح الأدب الشـــعبى ، ومصطلح (الفولكلور) الذى نحب أن نستعمل بدلا منه مصطلح المأثور الشعبى ••(١١)

فالمأثور الشـــعبى مصـــطلح يطلق على الممارســات العملية والقولية والاحتفالية للشـــعب بصورتها التلقائية الجمعية ، فهى اذن تيار الحياة الثقافية الشـــعبية المتدفق والمستمر ، يضاف اليه باستمرار مكتســـبات جديدة ، وخبرات جديدة تضاف الى الموروث المتبقى فتثريه ، وتطور فيه مما يجعله مســـتمرا فى الوجود والحياة • اما الأدب الشـــعبى فمصـــطلح يطلق على المعطى القولى المرتبط بالذات الجمعية والمعبر عنها ، ولـــكنه معطى قولى دخله التنظيم والترتيب ، وخضـــع للقواعد الفنية ، واندرج فى أشكال فنية محددة لها قواعدها وأصولها • وخضع لنوع من الحرفية التى تحقق له انسجاما فى الشكل وفى الموضوع معا • وهو مع كل هذا جزء لا يتجزأ من المأثور الشعبى ، اذ هو مثله منتوج ثقافى يمثل المجموع ، ويعبر عن الحس الجماعى ويعكس آلام المجموع ، واحلام المجموع ، وأشواق المجموع • والفارق الوحيد بينه وبين الأدب الفردى ، أن الأدب الفردى يعبر عن ذات مفردة هى ذات المبدع وحده ، بينما الأدب الشعبى يعبر عن ذات جمعية هى ذات المجموع كله • فقد اختاره وتبناه ، وكتبه باللغة المشتركة التى تكفل له أن يحطم حاجزى الزمان والمكان جميعا •وهو فى انتقاله مشافهة يزيد ثراء بما يتم عليه من اسقاطات جديدة عبر الزمان والمكان • •

وينبغى لنا أن ندرك أن الأدب الشعبى يبدأ فى ابداعه من الفـــرد ثم ينتهى الى المجموع ، لأن الأدب لا يكتب

نفســـه ، بل يبدعه الأفراد ، ولكن حين يكون ابداع الفرد معبرا عن غيره بقدر ما هو معبر عن نفســـه ، وحين يصبح هذا الغير متسعا تدريجيا ليشمل المجموع ، يتبنى المجموع هذا الانتاج ، ويتنـــاقله أفراده ، وهو فى أثناء التناقل يكبر ويتضـــخم بالاضـــافات والتراكمات التى تأتيه من التداول من ناحية ومن اضافات الرواة المتعددة ، وتفاعلهم مع المتلقين بأذواقهم المتغيرة من مكان الى مكان، ومن زمان الى زمان ، من ناحية أخرى •

ومع هذا فهذا العمل يظـــل دائما منطلقا للتعبير عن القضـــايا المعاشة ، كما يظل دائما هو الأداة الصالحة للاسقاطات السياسية والاجتماعية ، وللتضمينات العقلية والوجدانية ، وللتســـجيل المســـتمر والحى والمتطـور للعادات والسلوك والتقاليد ، وما يصيب المثل من تغيرات وتطورات ، طبقا لما يصيب المجتمع من تغيرات وتحولات • بحيث يفقد هذا العمل علاقته بمبدعه الفرد الأول ، وينفصل عنه كذات مفردة صاحبة قضايا ومواقف محددة ، وانما تصـــبح علاقته بالمجموع تعبيرا ورصـــدا ، واستجابة للطموحات والاشواق العامة والمشتركة •• مثل هذا العمل بعد مروره بكل هذه الدوائر هو ما يسمى بالأدب الشعبى ومن أبرزه وأكثره تكاملا ما أسميناه بالســـير الشـعبية العـــربية •

فنحن اذن أمام عاملين هامين يحـــددان المادة التى ينطبق عليها مصطلح الأدب الشعبى بعامة وهى :

العامل الأول هو وجود الفنية الخاصة بالنوع الأدبى لهذا الأدب الشعبى ، وهو يختلف من شعب الى شعب ، ومن ثقافة الى ثقافة ، فهناك الملاحم عند الاغريق واليونان، وهناك فى مقابلها السير الشعبية عند العرب ، وهناك آداب مشتركة تشترك في ابداعها كل الشـــعوب ، وبغية موحدة مثل الحدوتة والحكاية الخرافية ، والشعر الشعبى بالوانه المختلفة من غنائية وملحمية وقصصية ودرامية ·· وهناك القصص الشعبى المتميز ، وما برز فى صورة محددة ذات فنية خاصة كألف ليلة وليلة ، وكحكايات الحيوان التى أثرت فى كتب الأدب والأخبار(١٢) ·

وهنـــاك الى جـــوار كل هذا العـــديد من الوان الأدب الشـــعبى التى تلتزم قواعد فنية محددة يكشـــف عنها الدرس ، ويحدد ملامحها البحث النقدى المتخصص ·

والعـــامل الثانى هو التداول الجمعى لهذا الأدب ، رواية وتناقلا واضافة ، من مكان الى مكان ، ومن عصر الى عصر ·· وذلك فى اطار وحدة اللغة وحيويتها ، تلك اللغة التى تشـــترك فى تداولها كل الأمكنة التى يتناقل فيها الأدب ويروج ، وتشــــترك فى استعمالها كل الأزمنة التى يعيش عبرها هذا الأدب · وقد يظل العمل الأدبى محصورا فى لغة محلية اذ لم يختره الضمير العربى العام ، فيظل أدبا شعبيا محليا ولا يرقى الى أن يصبح أدبا شعبيا عربيا عاما ، كما قد يظل الأدب الشعبى محصورا فى لغة عامية

معينة ان لم يختره الضمير الجمعى ليدخله فى لغته العامة الاعرض تداولا ·· ويظل العامل الأساسى الفعال فى هذا هو قدرة النموذج الأدبى على جمعية التعبير ، وجمعية الوفاء ، بمتطلبات المجموع ، او الشعب التى يرجوها من هذا الأدب ·

ومن هنا فالأدب الشعبى جزء من المأثور الشعبى أو الفولكلور ، ولكن ليس كل مأثور شـــعبى أو كل منتوج فولكلورى أدبا شعبيا ·· (فالفولكلور) أو المأثور الشعبى، طابعه التلقائية والعفوية ، والأدب الشعبى ، أساسه التنظيم والخضوع لنهج فنى محدد ·

ومن هنا ايضا فالأدب الشعبى ليس هو ادب العامية ، وليس هو أدب الفصحى ، فالعامية لها أدبها وادباؤها ، والفصـــحى أيضـــا لها ادبهـــا وادباؤها ، وهذه وتلك عند الاثنين أداة تعبير يبرعون فى التعبير عن أنفسهم بها ·

والكتابة بالعامية لا تحول ما ينتجه ادباء العامية من أدب افراد يعبر عن ذوات باعيانها الى ادب شعبى يعبر عن الذات الجمعية ، وأنما هو بكل المقاييس الفنية ابداع فردى ينسب الى صاحبه ، ويدرس على هذا الأساس · تماما كما يدرس الأدب الفردى الفصـيح وينســب الى صاحبه وحده ، اذ هو تعبير متميز لانسان متميز بالقدرة على الابانة مع عمق الاحساس ، واجادة التعبير ··

ولن تكون نقطة الابتداء فى انطلاقة العمل وتحوله من أدب فردى الى أدب شعبى هو انتاجه بالعامية أو انتاجه بالفصحى ، ولكن هذه النقطة تبدأ حين يشحن الضمير الجمعى العمل ، ويحمله تراكماته الفولكلورية ، وبقدرته على الاستمرار فى الوجود الجمعى العام ، وتحوله الى اللغة الوسطى التى لا تخرج على قواعد الفصحى بشكل عام ، والتى لها خاصية العامية فى الحيوية المستمرة ، واستيعاب كل التغيرات الحياتية الطارئة على حياة الناس وعلى مجتمعهم ، فهى بهذا مفهومه فى المنطقة العربية كلها ، وهى فى نفس الوقت قادرة على التطور مع الناس وبالناس .

ولهذا قد ظل الأدب الشعبى بعامة ، وخاصة القصص الشعبى فى ألف ليلة وليلة ، والسير الشعبية العربية الكبرى ، اداة اتصال وجدانى عند العرب فى كل العصور وكل البيئات ، فى الوقت الذى انفصلت فيه الآداب العامية وتقوقعت على ذاتها ، وفى الوقت الذى عجزت فيه الفصحى ان تصل الى كل الطبقات الاجتماعية والثقافية العربية(١٢)

ـ ومن هنا ثالثا فان الأدب الشعبى ليس منتوج طبقة العامة من الشعب ، وليس هو أدب العوام . بل هو تعبير عن الشعب بكل طبقاته الاجتماعية والثقافية بوجه عام . وقد وقع كثيرون فى هذا الخطأ واعتبروا الأدب الشعبى هو أدب الفلاحين والطبقات الدنيا فى المدينة ..

وقد دفعت عدة عوامل الى هذا الخطأ : منها أن جامع الأدب الشعبى غالبا ما يبدأ عملية الجمع بين أبناء هذه الطبقة لأنها الأكثر بعدا عن المتغيرات الطارئة فى العادات والتقاليد والتى تسرع اليها الطبقات الثرية المحبة للتغيير (والمودات) الجديدة بطبيعة حبهـــا للبروز والظهور • واظهار علامات الثراء . والرغبة فى التميز ، والاختلاف عن المجموع ••

فهى ـ أى الطبقات الثرية ـ أسرع الى تقليد الوافد والغريب • وهى ـ أى الطبقات الثرية ـ أميل الى أن تقود حركة التغيير فى المظهر والسلوك وانماط الثقافة المتعددة •• بينما ترتبط الطبقات العاملة بالأرض وقيم العمـــل ، أى بالانتاج ، وهذا الارتباط يفرض التمســك بتقاليد الأرض وتقاليد العمل التى هى جزء من عملية الانتاج ذاتها . وتلقين الاساسيات والتفاصيل جزء من استمرار موروث الأرض ، وموروث العمل ومهاراته وأســـراره • ومن هذا كان اتجاه الدارسين عن المأثور الشعبى يتجهون الى هذه الطبقات التى هى بطبيعتها أكثر حفـــاظا على التراث . وأشد تمسكا بالتقاليد والعادات الموروثة ••

ولو ان دخول الوسائل الاعلامية الصـــوتية والمرئية بشـــكل مكثف فى حياة هذه الطبقات يهدد هذا الحفاظ ، ويزعزع من استمرار ارتباطها بالموروث الشعبى ، ومن هنا كانت الدعوة الى سرعة جمع المأثورات الشعبية قبل

انقراضـــها بدخول القيم والسـلوكيات التى تزحف بها وسائل الاعلام المعاصرة دون تخطيط أو دراسة تضــع الحفاظ على الموروث نصب عينيها ·· فكلمة شعبى اذن لا تعنى الانتماء الى طبقة بعينها ، وانما هى تعنى التراث المشترك لكل طبقات الشعب وفئاته التى تجمعهم بنســبة ثقافة مشتركة وواحدة ·

ومن هنا رابعا فان البحث عن مؤلف فرد للنص الشعبى عملية شبه مستحيلة ، فالمؤلف الأصلى نواة النص الشعبى قد اختفى وراء القـــدرات الابداعية المتتالية التى غيرت وحورت وأضافت فى حركة هذا النص عبر الزمان وعبر المكان معا ·· فالنص الشعبى وان ابتدأ من عند فرد الا ان هذا الفرد قد نسى ، ولم يعد اسمه هاما أو مذكورا ، وانما تضافرت عليه قوى أخرى غيره ، وتستمر هذه القوى فى الاضـــافة اليه الى ان تثبت حركة النص فى التداول الشفاهى بتدوينه ·· وهناك مقولة هامة تشرح هذا الأمر وتوضحه ، وهى أن مؤلف النص الشعبى الحقيقى هو متلقيه ·· اذ ان النص حتى لحظة ثباته بتدوينه ملك لكل بيئة جديدة يدخلها ، وملك ايضا لكل زمن جديد يصـــل اليه · وكل بيئة يتقدم راوى النص فيها باعادة الصياغة لتلائم لغتها وظروفها ، وتعبر عنها ، وكل زمن يتقدم راوى النص فيه باعادة الصياغة ليلائم روح الزمن الجديد ولغته وظروفه المتغيرة السياسية والاجتماعية أيضا ··

ومن هنا فان كل راو للســيرة الشــعبية ، والأدب

الشعبى فى عمومه ، ممن يحترفون روايته للجماهير يعتبر نســخة حية مستقلة للنص الذى يرويه ٠٠ وكذلك الأمر بالنسبة لحفظة التراث الشعبى ممن يحفظون سيرة شعبية أو نصا شعبيا بذاته هواية وحبا ، يعتبرون أيضا نسـخا مستقلة حية للنص الذى يحفظونه ٠٠ أما الاسماء التى ترد فى السير الشعبية وتنسب العمل الى قائل أو آخر ، ففى الغالب الأعم تشير هذه الأسماء الى رواة متعددين أخذ عنهم الراوى الجديد نصه الذى يرويه ، فهذا الراوى الجديد يرمز الى نفسه بكلمة (قال الراوى) ٠ ثم يشير الى مصادره بكلمة (قال فلان) ٠٠

ويبدو هذا واضحا فى سيرة عنترة بن شداد ، اذ ينقل الراوى فى الأجزاء الأولى التى تتحدث عن أخبـار الأنبياء وملوك العرب القدماء عن (وهب بن منبه) أو عن (الرواة الحفظة) أو عن (ابن عباس) ، فاذا ما دخل على حياة عنترة نفسه روى عن (الاصمعى) ٠٠

ومعروف ان الأصمعى روى أخبار عنترة بن شـداد شاعر المعلقات العبسى ، كما هو معروف ان وهب بن منبه مرجع رئيسى عند رواة أخبار الأمم القديمة التى سكنت الجزيرة العربية فى شمالها وجنوبها ، وقد اعتمد على رواياته الكثير من المفسرين فى الاشارات الى الأمم البائدة ٠

واضـــح ان التقليد العربى فى نسبة القول الى قائله

مطبق هنا كما هو مطبق فى كتب الأخبار والأنساب والأدب ، واذا كان هناك داخل هذا التقليد تقليدا آخر ، هو الانتحال، أى انتحال القول ونسبته الى ثقة ، أو الى مصدر مظان الثقة لتأكيد صدقه ، رغم أنه خبر أو قول أو نص شعرى موضـــوع ، فنحن نجد أن المسألة تتم بلا تحرج علمى ، فالتأليف هنا أصيل ، ولم يسأل أحد ، ولن يسأل أحد فى نص أدبى عن الصدق التاريخى ، بل يسأل دائما عن الصدق الفنى ، فيقين التأليف على ألسنة هذه المصادر أصل ووارد ومسلم به ، أما أسماء المصادر فتأتى لتتحدث عن المصدر بشكل عام لا بشكل نصى • ويراد منها تأكيد رائحة الحقيقة والايهام بها •• ومن هذا الباب ما جاء فى نهـــاية الجزء الخامس والخمسين والأخير من سيرة عنترة ، حيث يتنحى الراوى ، ولا يقول كالمعتاد (قال الراوى) •• بل يقول (قال المؤلف) ويورد نصـــا يحدد فيه زمن الانتهاء من كتابتها فيقول : (وقال مؤلف) هذه السيرة الحجازية وهو الأصمعى رضى الله عنه (وكان الفراغ من تأليفها يوم الجمعة المبارك من أواخر جمادى الثانى سنة ٤٧٢ من الهجرة النبوية الشريفة ، فى أيام الخليفة أمير المؤمنين هارون الرشيد العباسى(١٤)) •

فالنسبة للاصمعى هنا لا تعنى شيئا ، لأن الرواى فى نص السيرة ، يورده فى مظان نسبة القول اليه •• تماما كما يورد عبد الله بن عباس ووهب بن منبه ، ثم يعود الى

السياق فيقول (قال الراوى) ·· كما أن هذا النص نفسه يحمل فى طياته مايؤكد كلامنا اذ يستأنف حديثه قائلا :

(وقد أرشدنى الى تأليفها رغبة فى سماع قولها ونثرها ونظمها ، وقد جمعت ماعندى من الأوراق مما سمعته عن سيرة عنتر بن شداد المشهور فى سائر الآفاق ، وأضفت ما رأيته بعينى ، ورتبت القوافى على بعضها بحسن نظام من زيادة ولا نقصان ، وانتقيتها من زبدة الكلام) ··

فهو يؤكد انها كانت معروفة ومتداولة بين الناس قبله ، بل أن بعضها كان مدونا على الأوراق ، وأضاف اليه ، ورتب وزاد وانتقى ·· فعملية (التأليف) كما يصفها هنا عملية صياغة بالمعنى المتعارف عليه · وليست بداعا من فراغ ، كما انها ليست عملية ابتداء قدر ما هى عملية انتهاء ·· وبالنسبة للعمل الشعبى ، تكون هذه العملية التى يصفها هى عملية تثبيت النص وتدوينه بصورة نهائية . لا عملية تناقل فولكلورى فى مرحلة من مراحل انتقال السيرة من راو الى راو آخر ·· والأصمعى كما ذكر الراوى فى صلب السيرة مصدر من مصادرها تماما كوهب بن منبه وعبد الله بن عباس وغيرهم ممن نرجح انهم رواه سابقون للسيرة كأبى عبيدة وجهينة والبلخى ، وغيرهم · فمؤلف السيرة يلجأ الى اسم الأصمعى ليعطى للسيرة أهمية خاصة بانتسابها الى عالم علامة له شـــهرته ومكانته فى الحياة الأدبية وخاصـــة كمصـــدر رئيسى لشـعر عنترة العبسى

واخباره . ويزيد المؤلف من اهمية سيرته بذكر طائفة أخرى من الاسماء فى آخر السيرة كمصادر لا يرقى اليها الشك . اذ يقول :

(وهذه السيرة الحجازية قد رويتها بروايات قوية عن الحمزة وعن ابى طالب وعن عمرو بن معديكرب وعن حاتم طى وعن امرىء القيس الكندى وعن حـــازم المكى وعن عبيدة وعن عامر بن طفيل ، فانه بعد عنترة تداولت افعاله على السن العرب(١٥) .

وواضـــح ان المؤلف يتلمس الاســـماء المشـــهورة من رواة وكتاب وشعراء معروفين لينسب اليهم الســـيرة كما نسبها الى الأصمعى . وبنفس الطريقة نسب راوى سيرة حمزة البهلوان الى ابن الأثير اذ يقول فى نهاية الجزء التاسع والعشرين (تمت بعون الله وحسن توفيقه قصـــة الأمير حمزة الشهير بحمزة العرب فى ٢٩ جزءا ، باسلوب الروائى الشهير والعالم الجليل ابن الأثير) . .

وواضح ان ابن الأثير لم يكن روائيا ، ولم يشتهر عنه التأليف الروائى ، ولكنها محاولة النسبة الى واحد من العلماء الذين يكسبون العمل احتراما عند المتلقين ..

وعلى هذا النسق يأتى ذكر الأصمعى وابن هشـــام كبعض مصادر سيرة الأميرة ذات الهمة وولدها عبدالوهاب .. الا أن النص المطبوع للسيرة يحدد فى الصفحة الأولى

اسماء الرواة ، وهو لا يطلق عليهم نعت المؤلفين أو نعت الروائيين وأنما هم رواة ، فتقول السيرة : (وان من روى هذه السـيرة العجيبة ، وما فيها من الأحاديث المطرفة الغريبة · وهو على بن موسى المقابنى وابن بكر المازنى وصالح الجعفرى ، ويزيد بن عمار المزنى ، وعبد الله بن وهب اليمانى ، وعوف بن فهد الفزارى ، وسعد بن مالك التميمى ، وأحمد الشمشاطى ، وصابر المرعشى ، ونجد بن هشـام العامرى · قالوا جميعا والله أعلم بما غاب عن الأبصار ، وسبق الى الظنون والافكار(١٦)) ·

فهو قد جمع لنا أسماء المشـهورين من الرواة فى عصره دون أن يدعي أن أحدهم قد ألف السيرة ، أو أنه هو نفسه قد قام بعملية التأليف·ويريحنا جامع سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يزن من الظن أو التخبط فيقول فى صراحة :

(قال الراوى أبو المعالى راوى سيرة ابى الامصار وسـائق النيل من أرض الحبشـة الى هذه الديار وبالله التوفيق) ··

فحدد لنا وظيفته فهو راو للسيرة لا غير ، واسـمه فهو أبو المعالى ، ووطنه فهو من مصر ·· ولم يدخلنا هو الآخر فى متاهة البحث عن مؤلف للسيرة(١٧) ·

أما سـيرة الظـاهر بيبرس فهى توقعنا فى اشكال

من نوع آخر تماما . فالسيرة تظل تسير بشكلها القصصى الذى اعتدناه فى باقى السير من ارتباط بالبطل وبأحداث عصره فى مواجهة أعدائه وأعداء الأمة حتى موت الظاهر بيبرس ثم الى نهاية عصر قلاوون ، ويتغير الأمر بالسيرة تماما فتتحول فى نهاية الجزء التاسـع والأربعين وطوال الجزء الخمسين الى سرد تاريخى لاسماء الملوك والشراكسة وأفعالهم بطريقة الكتابة التاريخية التى تهتم بذكر لقاء الملك وأعماله ويوم توليه ويوم وفاته حتى نهاية السلاطين من حكام المماليك الشراكسة أى حتى نهاية السلطان الغورى(١٨) .

ثم يدخل فى حكم العثمانيين وسلاطينهم ويورد أحداث الحرب العثمانية الروسية ، وحروب العثمانين مع دول أوربا حتى نهاية حكم السلطان عبد الحميد الثانى(١٩)

فيدخل فى الحديث عن ولاية محمد على وخلفائه ابراهيم وعباس الأول وسعيد واسماعيل وتوفيق ، ثم الثورة العرابية حتى نهايتها ويقف عند وفاة الخديوى توفيق وينهى سرده التاريخى الذين يدخل فى حدود المعاصرة عند ولاية عباس حلمى الثانى . وواضح ان انتشار السيرة قد أغرى السلطة أيام عباس حلمى بالزج بوجهه النظر الرسمية فى الثورة العرابية ضمن هذا العمل الشعبى الذى يصل الى قلوب كل الطبقات بما فيها العامة ، أو وبالذات العامة من الذين تعاطفوا مع الثورة العرابية وجدانيا

وسياسيا · فنحن اذن أمام نص من نصوص السيرة أستغل استغلالا سياسيا فى فترة تدوينه ، أو فى لحظة ثباته وخروجه من التداول الشفاهى الى مرحلة التدوين · ومن هنا تكون نظرتنا الى ما ذكرته السيرة عن رواتها أو مؤلفيها متسمة بالحذر · تقول السيرة فى الصفحة الثانية من جزئها الأول :

(تأليف السادات الكرام المشهورين بالعلم وعلو المقام نبراس الافهام الدينارى ووافقه على ذلك الدويدارى وهما بذلك أعظم دارى ، ثم ناظر الجيش وكاتم السر والصاحب، فكل من هؤلاء له بحر فيها ، وما يخصـــها من معانيها ومبانيها ، وما ارخوه ، وماشاهدوه ، وما نقلوه عن السادة من اخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم ، وما عاينوه من كرامات الأولياء ومعجزات الانبياء ، وسنذكر كل شىء فى مكانه ، بعون الله وسلطانه) · ·

وسنلاحظ أولا انه فصل ، بين الدويدارى والدينارى وبين باقى من ذكرهم من المؤلفين) · ·

وسنلاحظ ثانيا أنه فصل بين المجموعتين بعبارة لاداعى لها الا لتبيان الفصل وتأكيده وهى عبارة (وهما بذلك أعظم دارى) · ·

وسنلاحظ ثالثا أنه فى صلب السيرة يقول كثيرا (قال الراوى وهو الدينارى رحمـــه الله) أو هو (الدويدارى رحمه الله) · · ولا يذكر أحدا من المجموعة الثانية بعد عبارة (قال الراوى) فى طول السيرة · وهذا الفصل بين

المجموعتين يجعلنا نتجه الى أن الرواة الحقيقيين الذين اعتمد عليهم الراوى الأخير هما الديناري والديويداري ، أما باقي الرواة فهم أصحاب الرقابة السياسية وأصحاب الاضـــافة للجـزء التاريخـى الذى أكملت به الســـيرة لتخدم عصر تدوينها الأخير . ويؤكد هذا الاتجاه ان أسماء المجموعة الثانية لم تذكر وانما ذكرت وظائفهم فحسب ، فهم (ناظر الجيش ، وكاتم السر ، والصاحب) .. ولعلهم أعضاء لجنة كونت لمراجعة السيرة وصياغتها بما يتلاءم مع الظروف السياسية للبلاد وربطها بحاكم البلاد المعاصر فى ذلك الحين وبأسرته ، وأعرف ان هذا الاتجاه سيفتح مجالات كثيرة للجدل والنقاش ، ولكننا نستند الى ماحدث للالياذة والاوديسة فى عصر سترانوس حاكم أثينا .. كما نستند الى الجرعة السياسية الضخمة التى تحملها سيرة الظاهر بيبرس(٢٠) .

وسـنلاحظ أخيرا على هذه العبارة أنها رغم انها أسمت كل هؤلاء بالمؤلفين الا أنها ذكرت فى تفصيل عملهم قولها : (فكل مـ ن هؤلاء له بحر فيها وما يخصـــها من معانيها ومبانيها وما أرخوه وماشـــاهدوه ومانقلوه عن السادة اخوانهم الذين يعتمدون من كلام الصدق عليهم) .. فالتأليف عنده فى مرحلة هو الحفظ والنقل وهو الرواية، وهو عنده أيضا اضافة وهو ماتم فى الجزء التاريخى الذى أشرنا اليه ..

فهذه الأسماء الواردة فى السيرة اذن اما أســـماء

المصادر التى اعتمد عليها الرواة كالأصمعى وابن الأثير وابن هشام وغيرهم ، وأما رواة شعبيون نقل عنهم أصحاب النسخة الأخيرة التى دونت وثبتت ، وأما مجموعة من الرقباء تطفلوا على السيرة الشعبية لسبب سـياسى فى عصر تدوين السيرة الأخيرة ، أو فى عصر دخولها دنيا الطباعة كما حدث بالنسبة لسيرة الظاهر بيبرس ·

ومن هنا خامسا : فان الدعـوة الى تحقيق النص الشعبى تحقيقا علميا ، كما تعودنا فى النصوص التراثية غير منطقية ، وغير علمية على السواء ·· فالتحقيق العلمى للنص يقتضى وجود النسـخة الأم ، أو أقرب النسـخ المخطوطة الى هذه النسخة ، وهذا متعذر بالنسبة للنص الشعبى ، فليست هناك نسخة أم · وان وجدت فهى تمثل بداية مرحلة ثبات النص بتدوينه ، وهى بهذا نسخة عصر معين ، أو بيئة معينة فى زمن بذاته ، أى أنها النسخة التى عرفت فى هذه البيئة فى هذا الزمن · وأهمية دراستها انها قد تفيد فى تتبع عملية التراكم الفولكلورى · ومعـرفة الاسقاطات التى أدخلها العصر وأدخلتها البيئة ·

أما النص نفسه فهو يتحدد فى كل بيئة ، ومتطور مع كل عصر · وما يوجد فى مكتبات العالم من نسخ لسـيرة معينة لا يعدو ان يكون نسخا لقطع منها ، أو نسخا لنفس النسخة التى ثبتت بالطباعة والنشر ، ودراستها تدخل فى باب تصـنيف المكتبات أكثر من دخولها فى عملية تحقيق النص تحقيقا علميا(٢١) ·

ـ ٣ ـ

السـير الشعبية العربية التى وصـلت الينا حتى الآن محصـورة وقليلة ، ورغم ضـخامة كل سيرة على حدة الا اننا نذهب الى أن الكثير من السير الشعبية لم يصل الينا ، أما لأنه قد فقد أو أهمل ، أو لأننا لم نحصل على نسخة مدونة منه فى وقت مناسب بحيث تحفظه لنا حتى اليوم ، ومات مع من مات من حفظته ورواته ..

والى جوار السير الشعبية المحلية التى تعرفها البيئات العـربية المختلفة لابطـال محليين ، وبعض أولياء الله الصالحين المحليين(٢٢) . حظيت مجموعة من الأعمـال بالذيوع العربى العام ، وأصبحت بهذا أدبا شعبيا يسـير من المحيط الى الخليج ، ويستمر عبر الزمان وعبر المكان ،

وعرفت منه طبعات شامية وحجازية ومصـــرية ومغربية وعراقية · ومن هذه الأعمال الشعبية التى عرفناها حتى الآن : سير : الزير سالم وعنتره بن شداد وذات الهمة وحمزة البهلوان وفيروزشاه ، وسيف بن ذى يزن والظاهر بيبرس وعلى الزيبق والســيرة الهــلالية بنســـخها المتعددة(٢٣) ·

وهذه الســير ـ ماعدا الســيرة الهلالية وحدها ـ سير نثرية تأخذ القالب الروائى ، وتقدم كل منها علاجا روائيا لمرحلة هامة من مراحل تاريخ الأمة العربية الاسلامية فى صراعها ضد القوى المحيطة بها ، الطــامعة فيها ، والمتنافسة معها فى بسط النفوذ على المنطقة كلها · فهى فى مجموعها سجل لتوحيد العربكقبائل مرة، ولتوحدالمسلمين كعرقيات مختلفة مرة خرى ، فى مواجهة الفرس والأحباش والروم والصــليبيين ·· وهذا البعد الســياسى أساس ضرورى فى السير التى خرجت من محليتها الى اطار التلقى العربى العام · بل ربما كان هو الســبب فى خروجها من الانتشار المحلى الضيق الى مجال الانتشار العربى العام · فالفكرة هنا ليست سياسية وحسب ، ولكنها سياسية مرتبطة ارتباطا جذريا وأساسيا بالفكر الدينى الاسلامى · فالدولة دولة اســـلامية ، والدفاع عنها دفاع عن الأرض وعن العقيدة فى آن واحد · ومن هنا لم تكن وراء حروب الدولة الاســلامية مجرد الفكرة الوطنية ، والدفاع عن الحدود السياسية ، والذود عن حرية البلاد ·· بل كان وراءها

دائما الفكرة الدينية والدفاع عن العقيدة ، والذود عن حرية الفكر الاسلامى ..

وهذا هو الذى أدى الى ذيوعها وانتشارها ، لأن تأصل الفكر الدينى فى الدولة الاسلامية ربط أولا بين الانسان والعقيدة ، وربط ثانيا بين العقيدة والأرض ، وربط ثالثا الانسان والعقيدة معا بمعنى الحرية التى لا تتجزأ ، فالانسان الحر تصح عقيدته ، والعقيدة الصحيحة تخلق بالأساس الانسان الحر .. ومن هنا امتزج البعدان القومى والدينى فى مزيج فكرى ووجدانى موحد .. ومن هنا أيضا امتزج معنى العروبة بالاسلام ، فالعروبة هى البعد القومى، والاسلام هو البعد الدينى ، وهما معا يكونان الانسان فى الدولة الاسلامية فى جميع عصورها قوميا وعقائديا فى وقت واحد .

ولعل هذا هو أحد الفروق الأساسية بين السيرة الشعبية العربية ، والملحمة الشعبية الاغريقية ، هما يلتقيان فى تسجيل حروب أمتيهما ، وقصص أبطالهما ، ولكنهما يفترقان فى عدة أمور ، منها الشعر ، فالملحمة عمل شعرى، والسيرة عمل نثرى بالدرجة الأولى ، ومنها ان الملاحم وان كانت قومية الاتجاه الا أن عنصر العقيدة يغيب عنها تماما، بينما هو فى السيرة شديد الحضور ، بل وأساسى وجوهرى فى بناء النسيج الروائى للسيرة نفسها ، يتحكم فى أهداف الأبطال وتكوين شخصياتهم ، كما تتحكم

فى الأحداث وتحولاتها ونموها الفنى ·· ومنها أيضا أن الملامح الفردية فى البطل قد كرســـت تكريسا شديدا بحيث امتزجت شخصية البطولة بشـخصيات الآلهة الوثنيين ، وتداخلت عوالم البشـــر بعوامل الآلهة ، وقد أدت الفردية المتميزة لبطل الملاحم الى بطل التراجيديات اليونانية ، التى يواجه فيها البطل القدر مواجهة درامية تنتهى عادة نهاية فاجعة بالنسبة للبطل · والبطولة الملحمية من هذا النوع التراجيدى عرفها القصص العربى القديم فى قصص عاد وثمود ، وقصص الملوك التبابعة فى الجنوب · وحكايات الزير سالم وحسان اليمانى وغيرهم ، كما تعرفها السـير الشـــعبية فى المرحلة الأولى من وجود البطل ، وهى مرحلة الولادة ، ومرحلة التكوين ، وليس هذا غريبا ، بل هو أمر منطقى أن يســـير التعبير العربى فى نفس المســـار الذى سارت فيه أشكال التعبير عند الشـــعوب الأخرى ، وأن يمر بنفس المراحل التى مرت بها الآداب الأخرى ·

فيبدأ من الأسطورة المصاحبة للطقس الوثنى العبادى، والتى يفســـر ويعلل ويؤرخ عن طريقها لوقع الوجـــود حوله على عقله ووجدانه جميعا · وأن تكون الأسطورة هى مجال التعبير عن احتكاكه الواعى بمتغيرات الحياة حوله ، تلك المتغيرات التى لا يجد فى مرحلة وجوده البدائى الأول من قدراته الذهنية أو المعرفية ما يفســـرها له ، وما يعلل ســـببها ، وما يحقق له كيفية ســليمة للتعامل معها ·

والبطل فى الأسطورة اله أو رمز لهذا الاله الطقسى

المعبدى الذى تحـاول الطقوس التقـرب اليه ، عن طريق تمثيل معاركه مع أعدائه من آلهة الشـر · وتحاول الرمز لحركته فى الكون بتجسـيد يمثله البطل ، سواء كان الاله هو الشمس ، أو هو المطر أو هو حيوان خرافى شـرير اخترعته المخيلة البدائية ليمثل قوة غامضـة كقوة المرض أو الموت أو الجفاف ·· ثم تأتى مرحلة تشترك فيها قوى انسانية لعبت دورا تاريخيا فى حياة الناس فى مرحلة ما من مراحل حياته ، مع الأبطال الآلهة ، ويبدأ الانسان فى التعبير عن تاريخه ، وتدوينه وتفسـيره فى اطار الاسطوتاريخية التى يتداخل فيها عالم الآلهة بعالم البشر ، ويحس فيها الانسـان بقصوره ومحدوديته ، وهزيمته الحتمية المؤكدة ·· ويدخل تدريجيا من مرحلة الاسطورة الى مرحلة التعبير الملحمى الصـاخب بالمغامرة النبيلة ، والمحاولة الفذة ، المحكومـة دائما بقدرة الانسـان المحـدودة عن تجاوز امكانياته فى مواجهة القوة المطلقة التى تتحرر من المكان ومن الزمان ومن الفناء جميعا(٢٤)

ثم يبدأ الدخول الى عـالم التعبير عن المواجهـة بين الانسـان وهذه القوى فى التراجيديا · وقبل أن يصل الأدب العربى الى هذه المرحلة الأخيرة حدث فى الوجدان العربى شىء هام وأسى أوقف هذا المسـار الذى استمر طبيعيا فى آداب الشـعوب الأخرى فأنتجت المـلاحم والتراجيديا ، وتوقف عند العرب فاجهضت الملاحم ، ولم تظهر التراجيديا أصـلا · ذلك ان المسـار الفكرى

والوجدانى لهذا التعبير ارتبط منذ الأســـطورة بالعلاقة المبهمة عند الانسان بينه وبين خالقه · واحساسه الدائم انه معه فى شد وجذب ، لابد أن يقدم له القرابين ، ويقيم له الطقوس ليرضى عنه ويبعد قوى الشـــر عن زرعه وصيده وحياته نفسها · وهو مرة يستطيع أن يترضاه ، ومرات يخفق فى ارضائه · وكل أمور حياته مرتبطة بهذا المسار القلق فى علاقته بآلهته ·· فأقام لها التماثيل والمعابد ·· وحمل رموزا لها مع رحلاته وجولاته ، واخترع من المعارف البدائية مايكشف له بعض أسرارها فى أطار العمل البدائى الأول وهو السحر ، وانتدب لها من بينه من يحس انهم الأقرب فهما لطلباتهم ، والأكثر معرفة بارادتهم ، والأكثر قدرة على التأثير فيهم ، وهم الكهنة(٢٥) ·

ثم جاء الاسلام فحســم كل هذه القضـــايا المعلقة ، والغى كل هذه الآلهة نهائيا ، وبالتالى الغى كل ماتناقله العرب حولها من معطيات أدبية ، ومن مأثورات قولية وغير قولية ، دخلت فى صلب الثقافة الشعبية العربية القديمة قبل الاسلام · وجاء الاسلام لربط العرب بالله وحده دون شريك ، ودون تجسيد ، ودون علاقة مابينه وبين الحياة البشرية القائمة بالعقل · وأعلن الاسلام حربه على الشرك ، وعلى الكفر ، وعلى تصور أى علاقة بين الله والبشر ، وانما الله منزه ومتعال لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا من أحد أبدا،لا فى الماضى ولا فى الحاضر،ولا فى المستقبل ·· وهذا التحديد القاطع انهى طموح الخيال الانسانى فى

تحميل عجزه على علاقات مشوهة بآلهته ، بل انهى هؤلاء الآلهة اصلا وقضى على وجودهم كلية ٠٠

وتحمل الشيطان وحده عبء العلاقة بالانسان ، اذ هو الذى أغواه حتى اخرج من الجنة وأخرج معه ، ليظل كل منهما عدوا للآخر الى يوم الدين ٠ فالشيطان هو الذى يسعى بالشر فى حياة الانسان الخارجية ، وفى وجوده الداخلى نفسه ، اذ يزين له فعل الشر ، ويوسوس له فى اعماقه بعصيان الله ، وتعريض نفسه للعذاب فى الدنيا والآخرة معا ٠ والملجا من وسوسة الشيطان ومكائده هو الله وحده ، وهو الايمان برسوله وكتابه ، وما انزل من كتب ، ومن أوحى اليهم من رسل ٠ فكل شىء قد غدا واضحا وبينا ، وتحددت العلاقات والحدود . الحرام بين والحلال بين ، ويزين الشيطان للناس الشر ، ويرحم الله عباده ان تخلصوا من أسر الشيطان وتابوا واصلحوا ، ثم تابوا واتقوا وعملوا صالحا ٠

كان لابد اذن أن يختفى البطل المنحدر من صلب الأسطورة القديمة ، وكان لابد اذن أن يتوقف نمو الوجود الملحمى له ، وان ينعدم تماما الوجود التراجيدى للبطل فى التعبير العربى الفردى والشعبى على السواء ، وكان لابد أن يبحث الوجدان العربى عن شكل آخر من التعبير يحقق له التلاؤم مع صورة البطل فى الوجود الفكرى والعقائدى الجديد(٢٦) ٠

ونحن نذهب ان الســـير الشـــعبية العربية كفن قولى ظهرت استجابة لهذا البحث ، وتلبية لضـرورة ظهور شـــكل اســـلامى للتعبير الأدبى ليبعده عن مظان الارتباط بالاشكال الأدبية المنحدرة من الاسطورة الوثنية القديمة ، ويكون فيه الوفاء الفنى لمتطلبـات التعبير العـــربى المتجددة ..

ولعل هذا هو الاساس فى عدم ظهور المسرح بشكله اليونانى التقليدى عند العرب ، ولعله أيضا الســـر فى أن البدايات الملحمية التى عرفها الشـــعر العربى القديم قد اجهضـــت وحلت محلهـــا الروايات النثرية التى تمتلىء بالمقطوعات الشـــعرية الطويلة ، بل وشـديدة الطول فى بعض الأحيان(٢٧ ا) .

ولـــكنها مع هذا تحتـــاج الى الســـرد النثرى والاضافة الروائية النثرية لتكون صـــلب هذه الملاحم بعد روايتها الجديدة فى العصر الاســـلامى ، فالمسرح اليونانى امتداد للمعبد وللملحمة(٢٧ ب) .

ووقف تيار الامتداد انهى احتمـــالات اســـتمرار الملحمة وتطورها واستقلاليتها ، كما أنهى احتمال وجـود المسرح بشـكله التراجيدى الاغريقى المعروف . وتقدمت السيرة الشـــعبية العربية لتعدل من مسار الملحمة لتتواءم مع الرؤية الاسلامية ، ولتحل نهائيا وبشكل قاطع محـل

الدراما التى لم يصبح لوجودها ضـــرورة فنية واضحة ٠ فالبطل الجديد ـ أعنى بطل السيرة ـ يحقق غاية اسلامية ، وهدفا قوميا عقائديا ـ حتى لو كان زمانه قبل الاســـلام كسيف بن ذى يزن وعنترة بن شداد ، وحتى لو كان غير عربى من الناحية العرقية كالظاهر بيبرس وحمزة البهلوان. فالبعد الزمنى والبعد العرقى قد استبعدا فى عملية الصياغة الاســـلامية للسير الشعبية العربية ٠

بل لعل استبعاد كل مايربط المسلم بالتراكم الاسطورى بشكله الوثنى القديم كان هدفا رئيسيا من أهداف التأليف الجديد فى فن السير الشعبية العربية ٠ بل لعله كان هدفا رئيسيا من أهداف المهتمين بالأدب عامة والشعر على وجه الخصوص ، مع استقرار حركة الدين الاسلامى ، وتمكنه من نفوس المؤمنين به والداخلين اليه من أبناء الديانات الأخرى وأبناء الشعوب المختلفة من غير سكان الجزيرة العربية ٠

ذلك ان الموروث الأدبى بعامة ، والموروث الشعبى على وجه الخصوص مر بمصفاة دقيقة وضخمة ، بحيث اختفت من الذاكرة أو كادت ، العطاءات الأدبية التى تشير الى العبادات الوثنية القديمة ، أو ترتبط ارتباطا ما بمتبقيات الأســـاطير المرتبطة بالعبادات الوثنية القديمة ، وبحيث اختفت من الذاكرة أو كادت الممارسات الأدبية الشـــعبية والمعطيات القولية الشعبية ذات الجذور المرتبطة بالعادات والتقاليد الممارسة فى عصور ما قبل الاسلام ٠ ٠

وأبقت هذه المصفاة من ديوان العرب ما يحمل من الأخلاقيات والمثل مالا يتعارض مع الفكر الاسلامى ، ان لم يكن يوافقه ويساند معطياته المثالية والخلقية والسلوكية تمام الموافقة ، أما الباقى فاما تجوهل فنسى ، وأما حذر منه بوضوح وجلاء ، واما حور وبدل ليتلاءم مع الفكر السائد الجديد · أما الممارسات القولية المرتبطة بالعادات والتقاليد الممارسة فقد شنت عليها حرب قوية ومؤثرة ، واستبقى منها ما لايضر ، وحذف منها ماهو مخالفة صريحة لتعاليم الاسلام كعقيدة وكفكر وكسلوك اجتماعى معا ·· وهذه المعطيات الاسلامية الضخمة لم تفعل فعلها فى المنقول والمحفوظ من النصوص وحسب ، وانما هى عملت فعلها ، الأكيد فى داخل نفوس وعقول المبدعين العرب ، فرديين كانوا أو شعبيين ، فأصبحوا لا يصدرون الا عن فهم كامل لما يقال وكيف يقال فى مرحلة ، ثم عن اقتناع وصدور عفوى ، عن رؤية واضحة فى وجداناتهم وعقولهم تتمشى مع الفكر الاسلامى ولا تعارضه ، وانما هى فى الكثير من الاحيان تؤكده وتثبته بطريق مباشر وغير مباشر ، وخاصة فى الطريق غير المباشر عن طريق العلاج الروائى للأحداث والافكار الاسلامية والتاريخية بعامة كما بلورها وطورها فن السيرة الشعبية ·

وقد لاحظ الدارسون المعاصرون قلة ما وصل الينا من شعر قبل الاسلام ، وقصر الفترة الزمنية التى يمثلها وهى حوالى مائة وخمسين عاما فقط ، ويوردون قول

أبو عمرو بن العلاء : (ما انتهى اليكم مما قالت العرب الا أقلة ، ولو جاءكم وافر لجاءكم علم وشعر كثير[٢٨] ٠

وقد ذكر برد كلماته فى (تاريخ الأدب العـــربى) بدايات الشعر العربى وارتباطها بالطقوس المعبدية ، الا انه كان حذرا وطرق الموضوع بتحرج شديد ٠ والواقع أن المسألة لا حرج فيها اذا ما وضعنا فى اعتبارنا ان هذه النصوص التى تسربت قليلة بل ونادرة ٠ وقد لجأ كثير من الدارسين والنقاد أخيرا الى محاولة فهم الشعر ما قبل الاسلام على ضوء بعض الرموز فيه ، وعلاقات هذه الرموز بالممارسات الاسطورية والمعبدية القديمة ، وهى محاولات جادة ، ولكنها تقوم على الحدس والمقارنة ، وارجـــاع المجهول الى المعلوم، وتطبيق قواعد البحث الانثروبولوجية، وكلها مع مشـــقتها والتزامها بالجدية تفتقد النصـــوص الصريحة والواضحة ، وهذه قد ضاعت واندثر أمرها ، وأصبح أمر العثور عليها مشكوكا فيه ، وان كان الاجتهاد مشكورا ومطلوبا فى آن واحد[٢٩] ٠

والحقيقة أن أمـــر الشـــك فى حجم الشـــعر الذى ذكره مؤرخو الشعر الجاهلى وأصحاب كتب الحماسات والمختارات الشعرية ، يتناقض مع ما توارد عن احتفال العرب بالشعر ، واهتمامهم الواضح بأمره حتى ليعلقوا المختار من قصائده على أستار الكعبة الى جوار أصنامهم ٠

وقد حاول الكثيرون منذ البداية الحصول على نماذج

أخرى من هذا الشعر ، ولكن الواضح أن ما حصلوا عليه ليس الا وضعا معاصرا لهم ، قيل لارضائهم وافتقد نبرة الشـــعر التي تتماشى مع القصـــائد المعترف بها منه ٠ من ذلك ماجاء فى كتاب أخبار ملوك اليمن من حديثه مع معاوية بن أبى سفيان عن أمر عاد اذ يقول معاوية (وأبيك لقد أتيت وذكرت عجبا من حديثك عن عاد ٠ وقد علمت أن الشعر ديوان العرب ، والدليل على أحاديثها وأفعالها ، والحاكم بينهم فى الجاهلية ، وقد سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول (ان من الشعر لحكما) ٠٠

قال عبيد : قد صدقت يامعاوية ، انه لما كان من وفد عاد ما كان وماقد حدثتك عنه ، وصارت عاد ووفدها أمثالا وأحاديث ، قالت العرب فيها أشعارا ٠٠ منها ماحفظناه ومنها مالم نحفظه ٠٠

قال معاوية (فهات واسمعنى ماحفظته من ذلك)(٢٠) والشعر الوارد طبعا لا يرقى فى قيمته الشعرية الى مستوى المعلقات أو غيرها مما جاء من ديوان العرب ٠ بل أن التزام شـــعر ديوان العرب باغراض محددة هى الفخر والمدح والهجاء والرثاء والغزل والوصف ٠ ينبىء عن تصنيف لموضوعات محددة ، وهى فى معظمها تعنى بالعطاء الخارجى للمعنى ، ولا تدخـــل فى صـــلب الانفعال الفنى والخلجات الداخلية للشاعر ، الأمر الذى يترك لفحولة الشـــاعر وعمقه ، دون أن يرد فى صلب هذه الأغراض ، هذا الالتزام

يوحى بنوع من القواعد التى قام عليها الاختيار ، وقامت عليها أسس الاستبقاء أو الاستبعاد ، وهذا افتراض يحتاج الى الكثير من التمحيص والمناقشة لا أظن ان هنا مجاله ٠ أو أن لدينا الأدوات للقيام به ٠٠ وان كان حقل الدراسات الشـــعرية والنقدية ملىء بمن يســتطيعون الالتفات اليه ومناقشـــته ، ربما خرجنا بشىء جديد فى هذا المجال ٠٠

ومع هذا فقد تسللت الكثير من النماذج الشـــعرية العربية القديمة التى ترتبط ببعض العادات والتقـــاليد ، وبحـــكايات الأمم الســـالفة ، وملوك التبابعة وبالأنبياء والأحداث مما بقى عنه الحفظة من أمثال عبيد بن شرية وغيره ، ولكننا نذهب أن هذه المتبقيات اما موضوعة وضعا معاصرا لرواياتهم ، وأما منقولة حفظا عمن وصفوها فى اطار الأحداث التاريخية القديمة ، وعلى ألسنة أبطالها ، ولكن مرت من المصفاة الأدبية الجديدة فلم تش من متبقيات أصولها المرتبطة بالأساطير والعقائد والعادات الا بالقليل النادر ٠

واذا كان هذا قد حدث للشـــعر ، فشبيه به ماحدث لغـــيره من الروايات التاريخية ، والحكايات القديمة ، والموروث الفردى ، أو الشعبى من الأعمال النثرية ٠

- ٤ -

اذا كنا نعتبر السير الشعبية العربية هى عطاء مرحلة الابداع فى دنيا الرواية العربية ذات الطابع الخاص الذى حددته الرؤية الاسلامية ، وحدده تغير مفهوم البطل فى ظل الاســـلام ، فنحن نذهب الى أن هذه المرحلة قد ســبقتها مرحلتان أساسيتان ، مهدتا لها ، ومكنتا من ظهورها ٠ الأولى هى مرحلة التجميع ٠ وهى مرحلة عكف فيها رواة حافظون على تجميع مالديهم من حـــكايات وأخبار تمس الحياة العربية ، وحياة ملوكها وأبطالها ، وحياة أحداثها وحروبها وتجاربها قبل ظهور الاسلام ، استجابة لرغبة المفســرين الذين استوقفتهم اشــارات القرآن الكريم الى قصص الانبياء ٠ وحكايات الأمم الســالفة ، ونعود هنا

فنذكر نص السيوطى الذى يقول فيه : (وتلمحت طائفة مافيه من قصص القرون السالفة والأمم الخالية ، ونقلوا أخبارهم ، ودونوا آثارهم ووقائعهم ، حتى ذكروا بدء الدنيا وأول الأشياء ، وسموا ذلك بالتاريخ والقصص(٣١) .

وهذا هو المدخل الأول الذى وجد فيه الحفاظ تنفسهم الى تدوين ماعندهم من حكايات وأخبار قبل أن تندثر معهم ، وتزول بزوالهم . وعرفنا من أسماء هذه الطبقة . ابن اسحق ، ووهب بن منبه وكعب الأحبار ، وعبيد بن شرية الجرهمي . ودغفل النسابة وهشام الكلبى، ويذكر صاحب الفهرست مجموعة كبيرة منهم فى الفن الأول من المقالة الثالثة من كتابه(٣٢) .

وسنلاحظ ان معظمهم من المعمرين الذين عاشوا حتى الدولة الأموية ومنهم الجرهمي الذى أدرك زمان النبى صلى الله عليه وسلم وعاش حتى أيام عبد الملك بن مروان ، ومع هذا يذكر لنا ابن النديم اسماء من روى عنهم من أحاديث أيام العرب وأحداثها وملوكها ، وسنلاحظ أن معظمهم كان يهوديا يمانيا كوهب وكعب الأحبار وغيرهما ، وان منهم النصرانى كعوانه بن الحكم بن عياض والنسابة البكرى وغيرهما .. وأهمية هذه الملاحظة ترتبط بمصادر معلوماتهم ، وخاصة عن أحداث الأمم البائدة ، وقصص

الأنبياء . فمعظم هذه المصادر ترجع الى الكتب المقدسة السابقة للقرآن الكريم ، كما ترجع الى كتب متوارثة مليئة بالقصص ، ولم يصل الينا من هذا الكتب الأخيرة شيء(٣٣) .

وقد ذكر وهب بن منبه فى كتابه التيجان انه قرأ الكتب المنزلة ويقول (قرأت ثلاثة وتسعين كتابا مما أنزل الله على الأنبياء ، فوجدت فيها أن الكتب التى أنزل الله على جميع النبيين مائة كتاب وثلاثة وستون كتابا ، ثم مضى يفصلها فى الصحائف التى انزلت على آدم وشيت ابن آدم ، وأخنوخ ونوح وهو وصالح وابراهيم وموسى وداود وعيسى والرسول محمد عليه السلام(٣٤) .

وهذه الجرأة من وهب هى التى أباحت له أن يكون مرجعا أساسيا عند المفسرين فى ذكر الأحداث والأخبار التى احتاجوها لتفسير بعض اشارات القرآن الكريم لحكايات قديمة اندثر أمرها . وهذه الجرأة نفسها هى التى دعت العلماء الى طلب الحذر من هذا السيل الدافق من الحكايات والأخبار المشكوك فى أمرها تاريخيا ، وأسموا هذه الاخبار بالاسرائيليات ، وأعلنوا أنها من مدسوسات اليهود وغير اليهود لافساد الرؤية الاسلامية للأخبار . ويبدو صحة ما ذهبوا اليه واضحا فى ادعاء كعب الأحبار أمام معاوية أن كل ماحدث ويحدث مفسر فى التوراه ، وقد ذكر النويرى فى نهاية الأرب حكاية معاوية مع كعب الاحبار اذ استقدمه ليقص عليه قصة ارم ذات العماد ، ويعجب معاوية بمعرفته فيقول له :

« يا أبا اسحق ، لقد فضلك الله على غيرك من العلماء ولقد أعطيت من علم الأولين والآخرين ما لم يعطه أحد ٠

فقال : والذى نفس كعب بيده ، ما خلق الله تعالى شيئا الا وقد فسره فى التوراه لعبده موسى تفسيرا ، وان هذا القرآن أشد وعيدا (وكفى بالله شهيدا) والله الهادى للصواب(٣٥) ٠

والنفس الاسرائيلى هنا واضح ومميز ، وهو يفسر غضبة علماء الدين والتفاسير على مثل هذه الروايات المنقولة ، والتى تحاول جاهدة جعل التوراة أول العلم والمعرفة ٠ وتجعل فيها من أسرار المعرفة مالا يعرفه الا أصحابها من أمثال كعب الأحبار ٠ والأمر عندنا ان ماقدمه هؤلاء ليس حديثا تاريخيا ثابتا يمكن الاعتماد عليه من الناحية التاريخية ، وعرض على قانون الصحة والخطأ الأخلاقيين ، وانما هو ـ عندنا ـ بقايا الحكايات الشعبية ، و (الملاحم) المجهضة ، التى ظلت فى ذاكرة رواة هذا العصر وكتابه ٠٠ فهى بنهايات ما احتفظت به الذاكرة ، وبدايات مرحلة التجميع للرواية العربية القديمة ٠

ولم تكن حاجة المفسرين لهذه الأخبار وحدها هى الدافع لحركة التجميع هذه ، فقد كانت هناك حاجة السمار الى مادة لسمرهم ، وقد عرف العرب السمر واهتموا به

اهتماما كبيرا ، وكان لهذه الاسمار دار خاصة بها فى مكة هى دار الندوة التى أنشأها قصى بن كلاب ويقول عنه ابن هشام فى السيرة النبوية (فكانت اليه الحجابة والسقاية والرفادة والندوة واللواء ، فحاز شرف مكة كلها) ٠٠ وفى دار الندوة كان يقوم أصحاب (المقامة) أمام الجالسين ليحكوا حكاياتهم ٠٠ وقد لام معاوية قصيا حين باع هذه الدار وانقطع عملها(٣٦) ولعلها كانت الحافز له على نقل مجلسها الى قصره(٣٧) ٠ وقد عرفت المكتبة العربية كتاب أخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية من مسامرات معاوية المدونة ، كما نقلت كتب الأدب والأخبار مسامراته مع كعب الأحبار وغيره ، وهذه الحركة التى دارت حول معاوية تسببت فى نشاط عصر التجميع ورجاله نشاطا وافرا ، وليس يغيب عنا أن السمر بالحكايات عادة متأصلة عند كل الشعوب ، ولسنا نغفل عن المساجلة التى حاول المسامرون بها محاجة الرسول واحراجه أمام قريش ٠ ويذكر لنا ابن هشام فى السيرة النبوية (ان النضر بن الحارث كان من شياطين قريش ، وممن كان يؤذى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وينصب له العداوة ، وكان قد قدم الحيرة وتعلم بها أحاديث ملوك الفرس ، وأحاديث رستم واسفنديار ، فكان اذا جلس رسول الله صلى الله عليه وسلم مجلسا فذكر الله وحذر قومه ما أصاب من قبلهم من الأمم من نقمة الله،خلفه فى مجلسه اذا قام،ثم قال : (انا والله معشر قريش أحسن حديثا منه ، فهلم الى ، فأنا أحدثكم أحسن من حديثه ، ثم يحدثهم عن ملوك فارس

ورسم واسفنديار)(٣٨) فحركة التجميع بدأت قبل الاسلام، واستمرت طوال مرحلة صدر الاسلام ، وان كانت فى بادىء الأمر قد اعتمدت على الرواية الشفاهية كما فى دار الندوة، وكما رأينا فى حديث النضر بن الحارث ، فهى قد دخلت الى عصر المدونات على يد وهب وعبيد وابن اسحق وغيرهم ٠

ومعظم أبناء هذه الطبقة يشك فيهم العلماء ، ويشككون فى الرجال وفى أحاديثهم معا ٠ ويذكر صاحب الفهرست عن ابن اسحق انه كان (يحمل عن اليهود والنصارى ويسميهم فى كتبه أهل العلم الأول) ٠٠ ومع هذا فنحن نذهب الى أن الكثير من أخبارهم دخلها الحذف والتنقيح ، وان الكثير مما دسوه مما يجرى مجرى الاسرائيليات المعنة فى الفرض والشبهة قد حذف ٠ وهذه المرحلة ـ مرحلة التجميع ـ هى النواة الأولى التى استمرت بعملية القص والحكى ، ووصلت بين متبقيات الحكايات العربية ـ وغير العربية القديمة ، وبين المرحلة التالية لها ، وهى مرحلة التأليف(٣٩) وسنلاحظ ان هذه المرحلة جمعت بين تجميع القصص العربية القديمة ، وخاصة ما ارتبط منها بملوك اليمن ، والأمم البائدة وقصص الأنبياء ، وبين حكايات وافدة من الأمم المجاورة كحكايات رستم واسفنديار التى كان يحكيها النضر بن الحارث وهو قرشى حافظ لأخبار الفرس وحكاياتهم ٠٠ ولا نستبعد وجود حكايات مترجمة عن الهند والروم ،

فقد كانت الاسفار وسيلة العرب للاتصال بالخارج ٠ وصلات العرب بالبلاد المحيطة بهم وشقها طرق التجارة وقيامهم بالرحلة بين بلاد الشمال حيث تصلهم موانيهم ببلاد البحر المتوسط ، وبلاد الجنوب حين تصلهم موانيهم بجزر بحر الهند وبالهند نفسها ، وتصلهم هذه الموانى أيضا بالدبشة وبلاد الزنج ٠

وتاتى بعد مرحلة التجميع ، مرحلة التاليف ، ونحن نقصد بكلمة التاليف هنا ، الجمع والترجمة واعادة الصياغة ولا نقصد بها عملية الابداع نفسها ٠ فهذه العملية احتاجت وقتا طويلا حتى تبدأ ، واحتاجت ايضا أن تكتمل لمرحلة التاليف ملامحها ، كما اكتملت لمرحلة التجميع ملامحها ٠ والواقع أننا لا نستطيع الفصل بين مرحلة التجميع ومرحلة التاليف فصلا زمنيا محددا ، وان كان من المنطقى والمعقول أن تلى الثانية الأولى زمنيا ، ولكن الواقع أن التداخل بينهما ملحوظ وسائد فى الأغلب الأعم ، والواقع أننا لا نعرف كتب أصحاب مرحلة التجميع الا من جهد أصحاب مرحلة التاليف التى تقدم فيها مجموعة من الرواد تحت ضغط الحاجات الثقافية المتنامية فى المجتمع العربى الجديد والفتى والمزدهر الى أعمال مرحلة التجميع لتقديمها تقديما يتلاءم مع مفهوم العصر ،والروح الفكرية والثقافية السائدة فيه ٠

وقد قام (ابن هشام) بتقديم السيرة النبوية لابن

اسـحق تقديما جعل اسـمه يطغى على اسم ابن اسحق لتعرف السـيرة باسمه هو ·· وابن هشـام ترك لابن اسحق صلب رواية الكتاب ، ولكنه اعترض على الكثير من رواياته وأكملها أو صـححها من رواة أخرين ، وناقش ابن اسحق فى الكثير من الأخبار التى شك فى صحة ترتيبها، وفى صحة ايرادها أصلا · فهو عمل أشبه بتحقيق النصوص تحقيقا علميا ، الى جوار قيمة صياغته الاسلوبية والفنية له · ونحن نلمح فى هذه الصياغة الميل بالأحداث لتخدم الفكر الاسـلامى وتسـير فى اتجاهه وتبشر به حتى لو كانت الأحداث تقع فى عمق التاريخ العربى القديم ·· وقدم (ابن هشام) لنا كذلك صياغته الجديدة أو تأليفه لكتاب وهب بن منبه (التيجان) · كما قدم لنا أيضـا بنفس المنهج كتاب عبيد بن شرية (أخبار ملوك اليمن) ـ وابن هشام بهذا قد غطى أهم الكتب التى عرفها عصـر التجميع عن التاريخ العربى القديم بعامة ، وعن تاريخ النبى عليه السلام بخاصـة ، ولكنها كتب غلب عليها طابع العطاء الشـعبى ، والاهتمام بشـخصية البطـل وتتبع الأحداث الدرامية والهامة فى حيـاته ، ولهذا فهى ليست كتب تاريخ بالمعنى المفهوم لهذه الكلمة ، بقدر ماهى كتب غلب عليها الطابع القصصى ، وتعتبر تسـجيلا فريدا للاسمار التى عرفها العرب قبل اسـلام وبعده · وهذه الموجة من المؤلفات صحبتها موجة اخرى من الكتب المترجمة عن آداب الشـعوب الأخرى ، ولكنها هى الأخرى مرت بمرحلتين · مرحلة النقل من اللغة الأم الى اللغة العربية ،

ثم مرحلة تألفيها عربيا واسلاميا من جديد ، تماما كما حدث للكتب المجمعة التى تحدثنا عنها ، ويذكر النديم هذه الكتب فى عداد كتب المسامرين والمخرفين ، تحت عنوان (أسماء الكتب المصنفة فى الاســـمار والخرافات) ··

ويذكر فى أولها كتب الفرس ويقول : (أول من صنف الخرافات ، وجعل لها كتبا ، وأودعها الخزائن ، وجعل بعض ذلك على السنة الحيوان ، الفرس الأول) ·· ويذكر أن أول هذه الكتب هو (هزار افسان) أو الف خرافة ·· ويذكر لنا ابن اسحق النديم ان هذه الكتب التى ترجمت الى العربية اســـتهوت بعض الكتاب لاحتذائها ، ويحكى لنا طريقة (التأليف) فى هذا العصر بحيث تتضح لنا سمات المنهج المتبع ، ويتضح لنا ان مرحلة الابداع الكامل لم تحل بعد ، فيقول : (ابتدأ أبو عبد الله بن عبدوس الجهشيارى صاحب كتاب الوزراء بتأليف كتاب اختار فيه الف سمر من أسمار العرب والعجم والروم وغيرهم ، كل جزء قائم بذاته ، لا يعلق بغيره ، واحضر السامرين ، فأخذ عنهم أحسن مايعرفون ويحسنون ، واختار من الكتب المصنفة فى الاسمار والخرافات ما يحلو بنفســـه ، وكان فاضـــلا ، فاجتمع له من ذلك اربعمائة ليلة وثمانون ليلة ، كل سمر تام يحتوى على خمسين ورقة ، وأقل وأكثر · ثم عاجلته المنية قبل استيفاء ما فى نفســـه من تتميمه الف سمر) ·

فالمسألة تجميع لما يحفظه المسامرون ، والمسامرون هنا يمثلون مرحلة التجميع ، ثم هو تبويب وتصنيف واختيار

وصياغة ، وهذا مايمثله ابو عبد الله محمد بن عبدوس الجهشيارى أحد أعلام عصر التأليف • ويتحدث ابن اسحق النديم عن كليلة ودمنة وعمل ابن المقفع فيه ، وهل (ألفه) عن الهند أم عن الفرس ، وكذلك يثور الاختلاف حول كتاب سندباد الحكيم • ثم يورد ابن اسحق النديم أسماء الكتب التى الفها الفرس والهند والروم • ويقف وقفة طويلة عند (اسماء العشاق الذين عشقوا فى الجاهلية والاسلام وألف فى أخبارهم) • كما يدخل (الكتب المؤلفة فى عجائب البحر وغيره)(([41]) فهذه المرحلة ـ مرحلة التأليف ـ حاولت تغطية كل مصادر الأعمال القصصية القديمة ، سواء منها العربية وغير العربية ، وســـواء منها ما اختص بأخبار الملوك ، والأمم ، أو بأخبار العشاق والمحبين ، أو بأخبار المغامرين فى البحار ومالاقوه من عجـــائب ومغامرات ، ويضيف ابن اسحق النديم اليها كلها فى ص ٤٣٥ أخبار البطالين وأخبار قوم من المغفلين (ألف فى نوادرهم الكتب) وهو لا يذكر اسم المؤلف ، وانمايذكر أسماء الكتب ومنها نوادر جحا وغيره من مشـــاهير الشخصيات الشـعبية العربية ، ونحن نضيف الى هذا العصر عمل الأصمعى فى أخبار عنترة وعمل ابن الأثير فى أخبار حمزة البهلوان ، ثم الواقدى فى كتابه (فتوح الشـــام) وكتابه (فتـــوح العراق) •

الجهد الأول كان جهد تجميع ماعند الحفظة والرواة والمسامرين والمترجمين ، والجهد الثانى هو جهد تأليف

الكتب المنفصلة والمرتبة من هذا الجهد الأول ، وهو جهد يقوم على المراجعة والاختيار ، ثم على التصنيف والتبويب، ثم على اعادة الصياغة ٠٠ وفى كل مرحلة من هذه المراحل كانت المصفاة الاسلامية تلعب دورها سواء عن واعية واضحة من المؤلفين ، أو عن احساس غير واع بالمسئولية الملقاة على عواتقهم ، أو عن حس بالغ الرهافة بمقتضيات العصر ، وتمثل كامل لفكره ومثله الاسلامية العليا ٠٠ الا اننا سنلاحظ ان أحدا من المؤلفين فى هذا العصر لم يبدع شيئا جديدا من عنده ، ولم يقدم على خلق حبكة روائية تضم أشتات الحكايات والنوادر والأخبار التى يذكرها ، بحيث يدخل عمله فى عملية الابداع الخلاق ٠

كما سنلاحظ ان بعض كتب هذا العصر قد دون دون ذكر للمؤلف ، مما يشى ببدء مرحلة تثبيت الابداع الشعبى بتدوينه ، ومما يشى بأن التدوين هنا كان عملية كتابة لأعمال تنوقلت مشافهة ، ونسى قائلوها ، فاغفل بالتالى اسم مدونها الأخير ، واصبحت لا تنتسب الى أحد بعينه كما رأينا فيما ذكره النديم عن أخبار جحا وغيره من نوادر المتبطلين والمغفلين ، ويعد هذا دخولا فى مرحلة الابداع الشعبى الذى يتداخل عند هذه النقطة مع المرحلتين السابقتين له تداخلا طبيعيا من الناحية الفنية ٠

أما وقد أصبحت هذه المجموعة الضخمة من حكايات العرب ، وحكايات الشعوب التى سبقت فى مضمار الحضارة

متاحة ، لا رواية وحسب ، وانما تدوينا أيضا • وأصبح لا حذر ولا خوف منها اذ هى دخلت الحصيلة العربية وقد تلاءمنا معهـــا كل الملائمة ، فمن الطبيعى اذن ان يثرى الخيال العربى الاسلامى بهذا الفيض الغزير من القصص ، ومن الطبيعى اذن أن يمرق على هذا النسق الفنى المتداول ، ومن الطبيعى كذلك ان يتجه الى لون خاص به من الوان الابداع الروائى يقوم على هذه الخلفية العريضـــة من الموروث الشـــعبى والقصـــصى والاخبـارى والتاريخى والابداعى ، ويقوم أيضا على تصور حقيقى لرسالة الأدب فى عصر تعيش فيه الأمة كلها معارك دامية ، وصراعات مريرة ، مع قوى عظمى تحيط بها من كل جانب ، وتقارعها بالسلاح وبمعطيات الحضارة معها ، وبخلفية حضـــارية قديمة مليئة بالأمجاد والابطال ، والاشادة بالانسان وقدراته وحقوقه • ويقوم ثالثا على تصور اسلامى واضح لشخصية البطل ودوره فى مجال الرؤية الاسلامية • فالبطل هنا مؤمن يحارب الكفر ، وخير يحارب الشر ، وانســـان يحارب الشيطان • وقوى الخير كلها تتضافر معه ، وقوى الشر كلها تعاديه • ومع هذا فحتم ان ينتصر ، وحتم أن تهزم قوى الخير قوى الشر ، لأن الله المحبة والسلام والمغفرة يمد أبطاله بالأسباب التى تؤدى الى انتصارهم على قوى الشر مهما عظمت ، وعلى جيوش الشرك مهما عظمت •

ومعارك المسلمين كانت دائما ضد أمم تخالفهم فى الدين ، ومن هنا ارتبط الاعداء بمخالفة الدين ، وارتبط الابطال بمعنى الانتصار للدين •

في مثل هذا المناخ المهيأ ثقافيا وفكريا وحضاريا بدأت مرحلة الابداع الشعبى العربى ، تخطط لنفســـها منهجها الخاص فى فنها المميز للسير الشعبية العربية ، التى حلت عند الثقافة العربية محل الملاحم ، والتى أجهضت قيام التراجيديا ، لأنه لا صدام بين بطلها والقدر ، ولا نهاية فاجعة تنتظر البطل ، بل هو بطل منتصر لنفسه ولقضيته من ناحية ، ومنتصر بوحدة قومه من ناحية ثانية ، ومنتصر بانتصـــار هؤلاء القوم بقيادته على أعدائهم المخالفين فى الجنس والدين معا ٠

ـ ٥ ـ

يرتبط البناء الفنى للسير الشعبية العربية ارتباطا عضويا ، بمراحل تطور البطل الرئيسى للسيرة · وهذا التطور نمطى يتكرر من سيرة شعبية الى أخرى ، بحيث يمكننا اعتباره المحور الرئيسى فى فنية كتابة السيرة الشعبية بصفة عامة · وتكرار هذا المنهج فى السير الشعبية العربية كلها يحقق خصوصية فنية فى البناء الفنى لهذه الأعمال ·

وتبدأ السير الشعبية عادة بمرحلة التكوين ، وهى مرحلة تشمل ما قبل ولادة البطل ، ثم ولادة البطل نفسه ، ثم قضية البطل الخاصة التى يعيشها فى اطار مجتمعه الخاص ، وتنتهى بانتصاره فى قضيته الفردية ، وتطهره الكامل من الظروف التى كانت تحيط به ، وتحاول

اعاقة تطوره الى المرحلة التالية من مراحل بطولته داخل السيرة الشعبية ·

وفى السير الشعبية التى بين أيدينا لا تبدأ هذه المرحلة الا بعد التأصيلة ، والتأصـــيلة هى مرحلة ما قبل ولادة البطل ، ممتدة الى أبعد مايمكن الابتعاد اليه من زمن يربط نسبه وقبيلته بالرسول فى السير المتأخرة كالظاهر بيبرس وعلى الزيبق ، وبأدم نفسه ان أمكن كما فى سيرة عنترة وذات الهمة والهلالية ، وهذه التأصيلة تتبع النســـب الكريم للبطل تتبعا روائيا ، أى أننا لســـنا أمام حالة ســـرد للآباء والجدود ، أو للبطون والعشائر والقبائل ، وأنما نحن أمام تتبع لمجموعة من الأحداث الهامة والمؤثرة التى لعب فيها هؤلاء الجدود والاباء أدوارا هامة فى دنيا الحروب والفروسية ، أو فى دنيا الأحداث الجسام التى لها ذكر مشهور فى أيام العرب وتاريخهم · وهذه التأصــيلة تثبت المواهب التى ســيتحلى بها البطل وتعود بها الى جذورها التى ظهرت فى أفعال من سبقوه ممن انحدر منهم نسبة · والتأصيلة تثبت شرف البطل بالنسب ، كما ستثبت الأحداث بعد هذا شرفه بالفعل ، وفى سيرة عنترة لا يكتفى أصحاب السيرة بتأصيل نسب شداد ابى عنترة وتأصيل قبيلته عبس ، وربطها بالأحداث الهامة فى الجزيرة ، بل هم يحاولون تأصيل نسب أمه زبيبة أيضا ، حيث هى المطعن الذى سبب له العبودية واللون معا ، فيذهب بها الى نسب النجاشى ملك الأحباش نفسه ، فاثبات شرف النسب ينحدر

الى السير الشعبية من مفهوم عربى عام للشرف ، ومن مفهوم شعبى متداول لأبناء الأصول · وهنا تبرز الثقافة العربية المتوارثة التى تظهر فى العناية بكتب الانســـاب ، وتلعب كتب عصر التجميع لعبها فى امداد كتاب السير بثراء هائل فى تحقيق انســـاب الافراد والقبائل ، وفى ربط هذه الانســـاب بالأحداث الهامة فى حياة الجزيرة ·

كما تلعب هنا أيضا كتب عصر التجميع ودورها البارز فى امداد كتاب الســـيرة بأحداث أيام العرب وحروبهم ، وتواريخ وقائعهم ، سواء كانت بين بطون القبائل ، أم بين القبائل بعضها وبعض كما هو واضح فى سيرتى عنترة بن شداد ، وذات الهمة ، أو بين القحطانيين والعدنانيين كما يتضح فى سيرة الزير سالم وسيف بن ذى يزن أو بين العرب كمجموع يسكن الجزيرة العربية وبين الشعوب المتاخمة لهم ، كما يظهر فى سيرة عنترة فى معاركه مع دولة المناذرة ودولة الغساسنة ، وبينهم وبين الفرس والروم من ورائهما، وفى نفس السيرة تنعكس أحداث المناوشـــات بين العرب الجنوبية وبين الحبشة فى تأصيل أسر زبيبة أم عنترة ، ونفس الأمر يظهر فى سيرة سيف بن ذى يزن ، حيث تنعكس العلاقات التاريخية الطويلة المتأزمة بين اليمن والحبشة على الخلفية التاريخية للسيرة ·· وهذه المعرفة الموسعة للتاريخ القديم وللانساب تتيح لأصحاب السير أن يدخلوا أبطالهم التاريخية من اباء البطل فى اطار المعارك التاريخية المعروفة بحيث يلعبون أدوارا بطولية هامة من الواضح انها مؤلفة

ومبتدعة من أســـاسها ، ومحملة على الأحداث التاريخية المستقاه من كتب عصر التجميع ٠٠

وهذه الكتب ذاتها هى التى تتيح ثقافة واسعة لكتاب السير فى المعتقدات والســـلوكيات العربية القديمة فتظهر عبادة النجوم فى سيرة سيف بن ذى يزن ، كما تظهر الكهانة والقيافة والعياقة والفأل والطيرة والقداح فى كل هذه السير فى مرحلة التأصيلة دون استثناء ، بل تظهر بعض الاسماء المشهورة التى أوردتها هذه الكتب لمشـــهورى العرب فى الكهانة وتفسير الاحلام والسحر والكرم والشعر والحب والفروسية ٠ كما تظهر قصـــور العرب القديمة ومعابدها ووديانها المشهورة ومنازل القبائل وأسماء مجارى المياه الثابتة ، أو المتجددة ، وأســـماء الجبال وتعليـلات هذه التسميات الأسطورية ٠٠ كما تظهر بعض العادات والتقاليد فى الزواج والموت والولادة ، وتكوين الاحلاف ، وتقســيم الفىء والغزوات ٠٠ كل هذا الى جوار اسماء النجـــوم ومنازلها والطقوس المتبعة معها فى رحلة الليل ، وطقوس الاستسقاء ، والخروج الى الصيد ، ومعاملة الأسرى ، وكيفية تقسيمهم ، وكذلك تقسيم الاسلاب ٠ وقراءة الفأل والزجر والاتصال بالجن ، واسماء الطيور الخرافية والغول والشق والعنقاء ٠ بل اننا نلمح معرفة غزيرة بانســـاب الخيل المشهورة ، وعاداتها وأسمائها ، وأسماء السلالية اللصوص الذين اشتهروا بسرقتها ووسائل احتيالهم على ذلك ٠

هذه المجموعة المتضـــافرة من المعلومات الشـــعبية والتاريخية وصلت الى كتاب الســـير فى كتب المرحلتين الســـابقتين للابداع · وتظهر فى هذه المرحلة النبوءات برسالة النبى صلى الله عليه وسلم ، وبامنيات الابطال من الأباء والجدود بأن يكونوا فى خدمة رسالته ، وان يحضروا عصره ليسلموا على يديه ، بل يبادر بعضهم بالعمل المسبق الذى يظهر استعدادهم الطبيعى للايمان به ، فكتب الملاحم القديمة تدلهم على قرب ظهوره ، وعلى علو نجمه ، وعنترة سيكون الوسيلة لتطهير الجزيرة من الفاسـقين والطغاه ليمهد الأرض لظهور الرسالة المحمدية ، وفى سيف يكسـو أبوه ذو يزن الكعبة بأنواع الكساء حتى يرضى الله عن ما قدمه من كســـــاء ليبلغ مرحلة التطهر من الوثنية والاثم والشرك ، وينشىء وزيره المؤمن بمحمد المقبل ورســـالته المدينة ، ويسميها يثرب على اسمه ، لتكون ـ كما دلته الكتب القديمة المهجر الأمن للرسول ورســـاله(٤٢) وهنا يبدو بوضوح آثار مرحلة التأليف التى أخذت على عاتقها مهمة التأصيل الاســـلامى لهذا الفن ، وربطه وربط بطله بالمعنى الاســـلامى المباشـــر فى مثل هذه النبوءات وغير المباشر ، فى ربط الأبطال الجدود والآباء برســـــالة الحق والعدالة منذ البداية ، وفى التمهيد للبطل بسلوكيات متوارثة اسلامية الطابع والفكر · ·

ثم تأتى ولادة البطل ، ولابد أن تســـبقها أيضـــا ارهاصـــات تؤكد أهمية هذه الولادة وخصوصيتها ، فأم

عنترة تحلم حلما رهيبا لا يفسر الا بأنها ستلد مخلوقا له شذوذه وتفوقه،وأم سيف تدس على أبيه وتغدربهوتقتلهليلة أن تحمل بسيف ، وما ان تلده حتى تتخلص منه ، فترميه فى البرية لتفترسه السباع ، واذا مانجا فهى تتعقبه بالمهالك ترميه فيها واحدة اثر أخرى • والظاهر بيبرس يؤسر وهو طفل مريض ، ويباع للنخاس الذى ييأس منه ، ويرميه دون اكتراث ليموت وحيدا فى الشام ، بينما يسافر هو وبضاعته من العبيد الآخرين الى مصر • وولادة فاطمة ذات الهمة تمر بفواجع من محاولة الاغتصاب والنجاة ، والموت ، ثم الاتهام الدائم يحيط بها والمهانة الكاملة بعد موت أبيها ، وتخفيها مع أمها ، وحمزة تحدد الاحلام قدره فيسرع أبوه بأخفائه فى قبيلة بعيدة فى صحراء العرب ليتربى بعيدا عنه ، وعن قدره ، وعلى الزيبق يولد بعد أن يموت أبوه ، وتخفيه أمه خوفا من صلاح الكلابى الذى يبحث عن الطفل الوليد ليقتله خوفا من أن يكبر فيطالب بثأر أبيه منه •

كلها ولادات محاطة بالمخاوف والمحاذير ، وهى محاطة أيضا بقدر كبير من الاعتقاد فى القدر ، ومحاولات الافلات منه ، ولادة البطل اذن فى السيرة ليس مجرد حادثة عادية ، بل لابد أن يحاط بهالة درامية تعطى أثرها فى ابراز أهمية المولود ، وأهمية دوره فيما يستقبل من أحداث •

ومنذ ولادة البطل تبدأ المرحلة التراجيدية فى حياته ، وهى مرحلة فردية وذاتية تماما ، همومها هى هموم البطل

نفسه ، وأيا كان الرمز فى القضايا التى تعكسها الا أنها قضايا شخصية تمس البطل فى ذاته · فعنترة عبد أولا وأسود ثانيا ، ورغم ارتباط هذه القضايا الشخصية بقضايا عامة وخطيرة ، وهى انتشار العبودية وخطرها فى تكامل المجتمع العربى ، والتفرقة اللونية وخطرها على الوجود العام للمجتمع البشرى كله ، الا أن خلاص عنترة منها خلاص شخصى ، يحرزه كقضية فردية تمس وجوده كانسان فى مواجهة هذه الظروف التى وضعتها فيها نشأته وتكوينه وولادته · ويصبح خلاص البطل منها انتصار فردى ، أحرزه بامكانياته الفــردية ، وطاقاته الذاتية ، ومهاراته الخاصة · حقيقة نحن نعتبر الرمز هنا رمزا انسانيا عاما ، ونعتبر انتصــــار البطل على هذه المعوقات رمزا لحتمية خلاص المجتمع والانسانية من الاستعباد والتفرقة العنصرية ولكن معركة البطل ليســـت ثورة يقودها لتحرير العبيد ، وليست عملا جمعيا يشرك فيه غيره لتحقيق هدف انسانى شامل هو القضاء على التفرقة العنصرية ··

ومن هنا ولو أن السيرة تتبنى هذه القضية وتبرزها الا أنها تضعها فى مسارها الذاتى لبطلها ، وتحصرها فى كفاحه الشخصى والمحدد · والبطل هنا فى السيرة الشعبية ينتصر ، وتدريجيا ، معليا قدر الاصرار الانسانى ، والجهد الفردى المســـتمر فى سبيل ازالة المعوقات وازاحتها عن طريقه · وفى ذات المهمة تقع البطلة فى قضية مكان المرأة من المجتمع الذى تسود فيه قيم الرجال ، وتحدد بهذا مكانا

هامشيا للمرأة ، وللمرة الثانية فان القضية نبيلة ، ومبكرة في تاريخ الأدب الانساني كله ، ولكنها تظل محصورة في نطاق كفاح فاطمة نفسها ، في اعتراف القبيلة نفسها بها ، اذ تقابل مجتمـــع الرجـــال بما يفهمه مجتمع الرجال ، فتتعلم الفروسية ، وتتزيا بزى الرجال لتقهر فرسان الرجال المشهورين ، وتحوز الاعتراف بفروسـيتها قبل الاعتراف بانوثها وحق هذه الأنوثة ، ثم هي تخوض معركة ضارية ضد الظلم الذى حاق بها اذ تضع طفلا أسود من زوج أبيض وتحوط بها الشبهات ، ولكنها أيضا تخوض المعركة وحدها ، وتربى ابنها ، وتثبت صحة بنوته لأبيه ، ثم تقهر أباه وتنتقم منه ، وتقود الرجال ، وتتصـــدر مجـــامعهم ومنتدياتهم ، وتسبقهم الى صنع الفضل والى احراز السبق والبطولة ، وتصبح قائدة لهم لا منازع لها ، ثم تتحول الى النسك والفضـــيلة والعبادة الزاهدة ، فتثبت مرة أخرى فضل المرأة في ميدان العبادة والعلم ٠٠ ولكنها في كل هذا تخوض معركة فردية واضحة ، هي التي تحارب وحدها ، وهي التي تصمد وحدها ، وهي التي تتفوق وحدها ٠٠ فالبطل يخوض معركته كفرد حتى يتغلب وينتصر وتأتى النهاية أيضا انتصارا ومصـــالحة ، ولا تقترب من حافة الفاجعة حتى يصل البطل الى بر الانتصار ، وتتضح الهوة بين التراجيديا الاغريقية ، ومثيلتها الروائية في هذه المرحلة من حياة بطل السيرة ٠٠ وهذه المرحـــلة يمر بها أبطال السيرة جميعا ، يعيشون قضية فاجعة فردية ، وينتصرون على المعوقات التي وضـــعتها حياتهم أمامهم بجهودهم

الفردية المثمرة ، والمنتصرة ابدا على الشر والظلم ، وانصار الشر والظلم(٤٣) ٠

وفى هذه المرحلة يمر البطل بالمرحلة الاســطورية فى الابداع الشعبى ، ثم يقفز الى المرحلة الدرامية فى الابداع الفنى ، وكما ساعد الفكر الاسلامى فى تطهير المرحلة الأولى من الشوائب الوثنية وادخالها فى حدود الرؤية الاسلامية ، كذلك ساعد الفكر الاسلامى فى تطهير هذه المرحلة من وجوت الصراع ضد القدر ، وهزيمة البطل الفاجعة والحتمية أمام قوى القدر ، أذ تساند قوى الخير البطل فى كفاحه الذاتى ، ليصل الى انتصار واضح يحيل النهاية الى بداية ٠ فمن نهاية هذه المرحـــلة تبدأ المراحل الهامة التالية لحياته ، والتى ماكان لها أن تكون الا بعد خلاص البطل من قضيته الشـــخصية ، وتحرره من عوائق تحول بينه وبين القيام بدور البطولة الكاملة ، بل ان الانتصار على هذه المعوقات هو الذى يبرر رفعه الى مصاف ابطال السيرة الشعبية ، واذا كانت هذه المرحلة هى مرحلة الدراما التراجيدية فى حياة البطل فان المراحل التالية تمثل مراحل البطولة القائمة على المغامرات والتفوق فى ميدان الحرب والحب والذكاء فى حياة البطل ، وقد حددناها فى كتاب (فن كتابة السيرة الشعبية) بالمراحل الفروسية ـ والاسطورية ـ والملحمية ـ فى حياة البطل ٠ وهى مراحل انطلاق البطل لتحقيق مكانه فى مجتمعه ، وهى المرحلة المسماه بمرحلة الفروسية حيث يتفوق البطل على الأبطـــال المعروفين فى محيطه ، وحيث

يرسى مبادىء الفروسية من نصرة المظلوم والانتقام من الظالم ، وحيث تتم قصة حبه وزواجه من محبوبته بعد أن يعلى من أمره وذكره ، فى الفروسية والشعر فى عنترة . وفى الفروسية والزهد فى ذات الهمة ، وفى الفروسية والعدل فى الظاهر بيبرس ، و الفروسية والحكمة فى سيف بن ذى يزن. وفى الفروسية والمهارة فى على الزيبق على سبيل المثال ٠ ونحن هنا أمام كم من التقاليد التى عرفها العرب باسم تقاليد الفتوة ، حيث لا اعتداء على امرأة أو ضعيف أو عجوز أو مريض أو طفل ، وحيث كلمة البطل شىء يفديه بحياته ، وحيث تتكامل أدوات البطل التى يحتاجها من فرس أو سيف أو ترس أو أدوات سحرية تعينه فى المرحل التالية٠ فى هذه المرحلة تتضح معانى النبالة والشهامة والفروسية، وتتضح معانى العدل والحب والجمال ، وتتضح معانى الفداء والتضحية والشرف ٠

وهذه المرحلة سلسلة من المغامرات فى الميادين التى ذكرناها ولكن فى اطار المغامرة الواقعية الى حد كبير ، وفى اطار هموم المجتمع الضيق الذى يعيش فيه ، ويتم فيها تكوين البطل ، وارتفاع شأنه ، وحصـــــوله على الأعوان والمساعدين ، واقرار الجميع له بالتفوق والتصدر ، ونيل مكان المقدمة فى هذه البيئة التى تدور فيها مغامراته ٠ ثم تأتى المرحلة المسماة بمرحلة الأســـطورة ، وفيها تختبر قدرات البطل فى تحدى قوى أعلى من القوة البشرية العادية كقوى السحر والطلاسم والجان ، وقوة الكهنة والسحرة

وقوى الغيلان والحيوانات والطيور الاسطورية ، والمخلوقات الغريبة ذات القدرات الخارقة .. وفى هذه المرحلة يمثل البطل قوى الخير فى مواجهة قوى الشر ، فكل هذه القوى الخارقة قوى شريرة من صنع الشيطان ، وتساند البطل فى قهرها قوى خيرة تريد له أن ينتصر على الشيطان وقواه. منها أولياء الله الصالحين ، وأولهم وأكثرهم ظهورا فى هذه المرحلة من حياة أبطال السير الشعبية العربية هو الخضر عليه السلام ، وكذلك قوى الحكماء ، أو العارفين بالسحر الأبيض فى مقابل السـحر الأسود ، والحكماء والعلماء بخصائص الأشياء وتراكيب الطلاسم وأسـرار المعادن ، ووسائل الخلاص من شراك الشر . وكذلك الجن المسلم المؤمن الذى يرى فى معركة البطل مع الشر وسيلة لعقاب الجن الكافر الشرير ، وسببا لاعلان الجهاد الاسلامى ضد الكفرة من الجان من أتباع ابليس عدو كل المؤمنين بشرا كانوا أم من الجان ..

ومع كل هذه الأدوات يأتى الذكاء والحيلة والقدرة على التفكير وتغيير الهيئة وخداع الاعداء ، والتمكن من معركة الاسرار المخيفة والاطلاع على ما فى النفوس من شر كامن وراء الظاهر الخداع(٤٤) وهذه المرحلة يتحرك فيها البطل فى مجال أوسع من مجال حركته فى مرحلة الفروسية، فهو يغامر مستعينا بعشيرته التى اتحدت معه فى المرحلة السابقة لتوحيد باقى القبائل العربية فى عنترة ، أو باقى مكونات الدولة الاسلامية كما فى الظاهر بيبرس ، أو باقى

ولايات الدولة العباســية كما فى على الزيبق ، أو باقى المرابطين على الثغور من المجاهدين المسلمين كما فى ذات الهمة ، أو باقى الفرسان المشهورين فى بلاد العرب وبلاد وادى النيل معا كما فى سيف بن ذى يزن ..

ويصبح البطل هنا مركز تجمع اقــوى الخير ، القوى القومية والقوى العقائدية معا ، فى مواجهة الفساد الانسانى والشر الشيطانى معا ، وقهره وتعبيد الأرض وتطهيرها من شروره .. فالبطل يرتقى من التغلب على همومه الشخصية فى مرحلة التكوين ، الى التغلب على همومه العشائرية فى مرحلة الفروســية ، الى التغلب على همومه القومية فى المرحلة الاسطورية ، فاذا ما وصلنا الى المرحلة الملحمية أصبح البطل مؤهلا لأن يكون رمزا لتجمع الأمة الاسلامية فى مواجهة أعدائها الخارجيين الطامعين فى أرضها ، وأصبح يخوض معركة أمته التاريخية حيث تمثل كل سيرة مرحلة من مراحل هذه المعركة ضد الاعداء المحيطين بالأمة الاسلامية ففى عنترة هى معــركة ضــد الفرس والروم فيها من الاسقاطات التاريخية ما يجعلها سجلا تاريخيا لمعــارك الجزيرة ضد هاتين الدولتين قبـل الاســلام ، وفيها ما يجعلها ســجلا للمعارك الاسلامية فى صــدر الاسلام ضدهما معا ..

وفى ذات الهمة هى معــركة ضــد الروم البيزنطيين بما يجعلها ســجل للمرحلة التاريخية من المواجهة بين

العرب والروم فى العصـــر الأموى والعباسى معا ، وهى فى سيف هى معركة ضـــد الاحباش بما يســـجل معارك الجنوب العربى ضـــد الأحباش ، وما يعكس معارك مصر المملوكية فى مواجهة الغزوات الحبشـــية فى العصـــر الصـــليبى ·· وفى الظاهر بيبرس هى معـــركة ضـــد الصليبيين تعكس الاصداء التاريخية لهذه الحروب المريرة التى كانت الشـــام ومصـــر مسرحا لها · وهى فى على الزيبق معركة ضـــد الولايات الفارســـية المستقلة والتى أرادت انهاء الوحدة الاســـلامية والاســـتيلاء على مركز الخلافة ، وهى فى نفس الوقت ســـجل للمعارك ضـــد الفرنج من الطامعين فى أرض المســـلمين · وفى كل هذه السير التى ســـجلت تاريخنا تســـجيلا روائيا رائعا ، تلمح أســـماء حقيقية لابطال تاريخيين ، كما تلمح معارك حقيقية دارت تاريخيا بين العرب واعدائهم ، كما تلمـــح تســـجيلا فذا لمرارة هذه المعارك وضـــراوتها ·· الا أنك فى كل هذا تحس أن الذى يحارب عن العقيدة والوطن هو الشعب نفســـه ، لا مجموعة من الملوك والأمراء ، انها وظيفة المسلمين أن يدافعوا عن أرضـــهم وعقيدتهم ، ومن هنا كان الابطال ينبضون بالحياة ، وكان الابطال الجانبيون يمثلون المكونات المتعددة لهذه الأمة ، والتى اشتركت كلها وعلى قدم المساواة فى معاركها ·· ومن هنا يخرج البطل من فرديته المطلقة التى رأيناها فى مرحلة التكوين الى أن يكون بطلا جمعيا بالمعنى الواقعى ، اذ يقود الرجال الممثلين لكل ملكونات الأمة ، وبالمعنى الرمزى ، اذ يصبح هو العلم

الذى تلتف حوله الشعوب الاسلامية فى معاركها التاريخية ..

وهذه المرحلة ـ أعنى المرحلة الملحمية ، مرحلة مميزة للسير الشعبية العربية ، فبدونها تكون السيرة ناقصة لم تكتمل نضجها بعد ، اذ نفقد من غيرها الهدف القومى العقائدى ، وهو الهدف الأساسى فى فن السيرة الشعبية نفسها . وسنجد فى هذه المرحلة استعادة كاملة من مجموعة المعارف والعادات والتقاليد التى حملتها كتب عصر التأليف عن أعمال الشعوب الأخرى ، التى أصبحت بعد الاسلام جزء من مكتونات الشعب الاسلامى كله ، فالمعرفة بعادات هذه الشعوب وتقاليدها ، وموروثاتها الشعبية ، ومأثوراتها القولية والفنية واضح تماما فى وصف الأماكن وتحديد سمات الأشخاص والأحداث أثناء تحرك البطل داخل أجزاء الوطن المختلفة .. والمهارة الروائية فى تحويل البطل من مجرد حالة وموقف ، الى شىء حى متحرك وملىء بالعواطف والانفعالات الانسانية التى تحيله الى كتلة من الحيوية الانسانية تجذب اليها المتلقى . ويتوحد معها ، وبالتالى يتوحد مع القضايا التى تمثلها فى نجاح يحققه فن السيرة بنسبة عالية جدا ، حتى لقد غدت اسماء الابطال اعلام متداولة في حياه الشعب العربى حتى الآن ، بل لقد تحولت أسماء بعض الابطال كعنترة وابى زيد ، الى صفات تمثل مجموعة من المثل والسلوكيات . وفى النهاية تأتى مرحلة الامتداد ـ وفى هذه

المرحلة يموت البطل ميتة الانسان العادى ، ولكن أبناءه وأتباعه يواصلون رسالته ، ويحملون رمزه واسمه ، ويحاربون تحت شعاره لتحقيق نفس الأهداف والمثل ، وللدفاع عن نفس القضايا القومية الاسلامية ، والخلفية الاسلامية ، والفكرية الاسلامية . فالموت على الانسان حق ، وهو يقبله برضاء ، ويعرف أن عمله سيبقى مادام صالحا وسنحس من هذه المرحلة هذا المعنى الاسلامى يتعمق روائيا وفنيا بعمق شديد .

وبعد فالسير الشعبية العربية ظلت بعيدة عن مجال البحث فترة طويلة ، وبدأ الاهتمام بها مؤخرا ولكنها تحتاج الى تكثيف فى جهود الباحثين المتخصصين لزيادة جلاء أسرارها التى لم تدل لنا بها كلها بعد .

فاروق خورشيد

تهميشات وملاحظات

(١) ان يذهب الدكتور حسين نصار فى كتابه نشأة التدوين التاريخى عند العرب ، الى ان اهتمام العرب بالأيـام قديم ، وان هـذه الأيـام كانت نوعا من الرواية لاحداث تاريخية تتصل بالحروب والانتصـارات لتفخر كل قبيلة بها على غيرها ، وان هـذه الأيـام ارتبط فيها الشـعر بالنثر . وعاش الخبر النثرى فى أطـار الاهتمام بالشعر وتناقله .. ويقول ان العرب احتفظت عندهم كل قبيلة بنسبها متداولة وتحفظه لابنائها . فكان لكل قبيلة من هـذه الانسـاب ما يمكن ان تعتبره تاريخا لها . ويقول أن أول كتاب عرفنـاه فى الانساب بعد مثالب زياد بن أبيه المسمى (مثالب العرب) .. هو كتـاب دغفل النسـابة .. ويقول : « دغفل النسـابة مجالس واسـمار ، فى بلاط الخليفة معاوية بن أبى سفيان الذى كان محبا للمسامرة وأحـاديث من مضى ، ويسمى هـذا الكتاب (التظافر والتناصر) » .. وبخصص

ابن النديم فى الفهرست « الفن الأول من المقالة الثالثة من كتابه لذكر (أخبار الاخباريين والنسابيين وأصحاب السير والأحداث واسماء كتبهم . ») ..

(٢) راجع المسعودى وابن النديم وعبيد بن شرية الجرهمى فى أخبار ملوك اليمن .

(٣) معجم الفولكلور للدكتور عبد الحميد يونس ص ١٤٧ وما بعدها .

(٤) المرجع السابق ـ طبعة مكتبة لبنان .

(٥) الفهرست لابن النديم ص ١٣٦ طبعة المكتبة التجارية .

(٦) يسمى صاحب الفهرست ابن اسحق باسم (صاحب السير) ، نسبه الى السيرة النبوية التى اشتهرت باسمه ، والتى أعاد صياغتها وقدمها مدونة (ابن هشام) . الا انه يحذر منه قائلا أنه (مطعون عليه ، غير مرضى الطريقة) .. ثم يذكر عن مادة كتابه ما يشكك فى صحتها ، فيقول (كان يعمل له الأشعار ويؤتى بها ، ويسئل ان يدخلها فى كتابه فى السيرة فيفعل ، فضمن كتابه من الأشعار ما صار به فضيحة عند رواة الشعر ، وأخطأ فى النسب الذى أورده كتابه ، وكان يحمل عن اليهود والنصارى ، ويسميهم فى كتابه أهل العلم الأول ، واصحاب الحديث يضعفونه ويتهمونه .. فسيرته اذن أقرب الى التأليف الابداعى منها الى التدوين التاريخى الموثق .

(٧) الاتقان فى علوم القرآن للسيوطى ـ الجزء الثانى .

(٨) راجع محمد مندور فى كتابه (فن الشعر).

(٩) يورد الدكتور مندور فى عبارته هذه الكثير من المسلمات :

أو من المقولات التى يوردها ايراد المسلمات وهى فى حقيقتها تحتاج الى اعادة النظر وامعانه فى آن واحد . منها قوله أن أدب الجزيرة العربية لم يعرف محاولات للخروج على قواعد الشعر العربى الفنى ذاهبا الى ان هذا الأدب كان من وحى البيئة ، ومن الوفاء بحاجة شعب الجزيرة النفسى ، رغم أنه من المعروف ان ما نقل الينا من أدب الجزيرة هو ما سمحت باثباته ظروف عصور تدوينه الاسلامية المتقدمة . واستجابة لعلوم وضعت بعد ذلك ، وانتقت ما يثبتها ويؤكد صحتها ، وعلوم العربية كلها وضعت بعد مرحلة ابداع هذا الشعر بزمن ، وحدوث أوزان الشعر وقواعد العروض ، وأصول البلاغة . ولاشك أن رسوخ هذه العلوم كان له دور كبير فى الاختيار والانتقاء من ديوان العرب القديم ولا يستطيع أحد أن يزعم أن ما وصل الينا من شعر العرب هو كل شعرهم ، ولا أن الصورة الأخيرة التى جاءتنا وهى صورة القصيد هى كل صور هذا الشعر ، فالى جوار الرجز هناك الصورة المتطورة التى أدت الى هذه الصورة النهائية ، ولم تصل الينا الا مقطوعات ضئيلة منها ، وأخبار كثيرة عنها . وكتب السيرة والمغازى والأيام وقصص العصور السحيقة تحمل لنا دلالات على وجود أعمال شعرية يمكن لنا أن نسميها شعبية لا تتقيد بقيود ما اسماه بحق الشعر الفنى .

(١٠) امتلاء الأدب العربى بكتب السير والتراجم للأفراد وللجماعات ، وحظيت هذه المكتبة بكتب سير الوزراء والقضاة والولاة والكتاب ، كما حظيت بسير الملوك والشعراء والمسامرين والمطببين ، الى غير ذلك من المهن والطوائف والأفراد . وكلها أقرب الى كتب التراجم منها الى كتب التاريخ ، كما انها أبعد ما تكون عن السير الشعبية كفن متميز .

(١١) (الفولكلور) مصطلح عالمى يعنى كلمة الشعب . ونؤثر دائما أن نستعمل بدلا منه مصطلح (المأثور الشعبى) ، وهو لا يشمل

فى مفهومــه فنون القول وحســب ، بل هو يشـــمل كل الممارسات والعادات والتقاليد والاحتفالات بالمناسبات العامة والخاصة ، وكذلك المصنوعات والمشغولات والمعطيات الحرفية والفنية التى ينتجها شعب من الشعوب كتعبير عن ثقافته ، ومهارته المكتسبة فى حياته اليومية ، على شريطة أن تظل قائمــة ، تنحدر من المراحل البدائيــة الأولى وتظل تحمل تراكمــات متعددة على مر الزمن ، وتحيـا بصـــورة أو بأخرى فى ممارسات ووجدان هذا الشعب . فهو يشمل هــذه المعطيات فى مرحلتها النفعية البدائية الأولى . ثم فى مرحلتها الجمالية النقدية ، حيث يرقى ذوق الانسان ويرهف حســه وينشــد الجمال فيما ينتج ، فيتحول منتوجه من نفع بحت الى نفع يتســم بالجمال ، وهى المرحلة التى تسمى بالمرحلة النفع جمالية ، ثم تظهر فى مراحل متأخرة المنتوجات ذات الغطـاء الجمالى البحت ، التى يقصــد بها المتعة الجمالية فى ذاتها . وهى مرحلة يصل اليها الانسـان بعد تمام سيطرته على الطبيعة من حوله : على الأرض والحيوان والمعـادن والآلة أيضا ، ويصبح قادرا على الاستمتاع بمعنى الجمــال ، ومظاهر وجود هذا الجمال . ولاشك ان كل مرحلة من هــذه المراحل قد صاحبها عطــاء قولى ، من مجرد التعبير عن الحاجات والانفعالات والرغبات ، الى القدرة على التحكم فى اللفظ واستخراج معــانى الجمال فيه ، ومعانى الجمــال فى الجملة والعبارة ، الى القدرة على التجسيم والتجريد والمحاكاة والخلق الفنى الذى يعبر عن موقفه من الحياة وأحساسه بها ، وعن تفرده المتميز فى انفعالاته الوجدانية ورؤاه العقلية على الســـواء . وينبغى أن ندرك ان هــذه المراحل مراحل افتراضـــية بمعنى أنها تتعايش وتتداخـل وتظـل موجودة متجـاورة ومتشابكة كتعبير جمعى عن ثقافة الجماعــة وعن همومهــا المشـتركة وآمالها الموحدة .

راجع الأدب الشعبى العربى : مفهومه ومضمونه : د. محمود

ذهنى ـ طبعة جامعة الزقازيق ـ مقدمة فى الفولكلور : د. أحمد مرسى طبعة دار المعارف ـ الفولكلور ما هو : أ. فوزى العنتيل طبعة دار المعارف ـ الفولكلور قضاياه وتاريخه : يورى سركولوف ، ترجمة أ. حلمى شعراوى وأ. عبد الحميد حواس ، طبعة الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ـ علم الفولكلور : الكسندر هجرتى كراب . ترجمة . أ. أحمد رشد صالح ، طبعة دار الكتاب المصرى ـ علم الفولكلور (جزءان) د. محمد الجوهرى ، طبعة دار المعارف .

(١٢) قصص الحيوان أو الفابولات توجد فى كل الآداب الشعبية العالمية ، وهى ترتبط بالعبادات القديمة وخاصة المرتبطة بعبادات الحيوانات وبالطواطم ، الا أنها فى الأدب الشعبى العربى أخذت مكانا متميزا حين دخلها الاسقاط السياسى ، ودخلها الى جوار هذا الرمز والاسقاط . والمكتبة العربية تسرف من كتب الحيوان مؤلفات لأشهر كتاب العرب كالدميرى والجاحظ والكلبى والمدائنى . كما تسرف الحكى عن الحيوان والتأليف على لسانه فى الأمثال ، وكتاب مجمع الأمثال للميدانى حافل بقصص الحيوان التى تشرح الأمثال أو تكون سببا لاطلاقها . الا أن هناك فى الأدب العربى نموذجين فريدين من قصص الحيوان ، هى كليلة ودمنة لابن المقفع ، وقصص الحيوان الواردة فى الليالى ، فان توظيف الحيوان فيهما يخرجهما من الفابولات ويدخلهما فى الأدب القصصى صاحب القيمة الفنية المميزة .. اذ يحمل الحيوان فيهما من المضامين السياسية والاجتماعية والتربوية ، ما يحيل الحيوان فيهما من مجرد الصورة الحيوانية الى الاداء الرمزى الفنى المتميز .. راجع للكاتب : عالم الأدب الشعبى العجيب ـ كتاب الهلال ١٩٨٨ .

(١٣) ساد عند عامة المثقفين ، وخاصة رجال الاعلام اطلاق الأدب الشعبى والفن الشعبى على آداب العامية وفنون العامية

المختلفة ، فسمعت فى الاذاعات العربية برامج الأدب الشعبى التى تقدم انتاج أدباء وكتاب العامية ، وشوهدت فى التليفزيونات العربية فى بلادنا برامج باسم الأدب الشعبى يقدم فنون القول العامية الموزونة والمحكية دون تحرجودون احتراز ، واكتملت الدائرة حين بدأت الجرائد فى كل الوطن العربى دون استثناء ، تخصص صفحات للشعر العامى تحت اسم الشعر الشعبى أو الأدب الشعبى ، وأصبح من المألوف أن يسمى شاعر العامية شاعرا شعبيا لمجرد انه يستعمل العامية فى ابداعه الشعرى .

(١٤) يعقب الدكتور محمود ذهنى فى كتابه سيرة عنتره : طبعة دار المعارف ص ١٣١ على هذه العبارة بقوله (من العسير أن تمر هذه العبارة التى تقرن عام ٤٧٣ هـ بالاصمعى وبالرشيد ، اذ انه من التواريخ الثابتة وفاة الرشيد عام ١٩٣ هـ ، ومن التواريخ الاحتمالية وفاة الاصمعى عام ٢١٠ هـ أو على الأصح بين عامى ٢٠٨ و ٢١٠ هـ وعلى ذلك فانه لايمكن بأى حال من الأحوال أن يكون الاصمعى هو الذى كتب هذه النسخة من السيرة وانتهى منها عام ٤٧٣ هـ . كما لايمكن بأى حال من الاحوال أن يكون ذلك قد حدث ابان خلافه الرشيد العباسى .

(١٥) انظر سيرة عنترة بن شداد طبعة المكتبة السعيدية المجلد الأول والمجلد الثامن .

(١٦) انظر المجلد الأول من سير الأميرة ذات الهمة وولدها عبد الوهاب : طبعة مكتبة عبد الحميد حنفى بالقاهرة . الجزء الأول . و ص ١٠ من الجزء الثانى . و ص ٥٢ من الجزء السابع .

(١٧) انظر ص ٢ من الجزء الأول من سيرة فارس اليمن الملك سيف بن ذى يزن طبعة المكتبة السعيدية بالأزهر .

(١٨) تورد سيرة الظاهر فى المجلد الخامس من طبعة مكتبة عبد الحميد حنفى جدولا طريفا باسماء ولاة مصر من الهجرة وحتى نهاية حكم السلطان الغورى صفحات ٣٥٦ - ٣٥٧ ، ٣٥٨ ، ٣٥٩ ، ٣٦٠ .

(١٩) فى ص ٣٩٣ من المجلد الخامس من سيرة الظاهر جدول بسلاطين بنى عثمان من الغازى سليم خان الى السلطان عبد الحميد خان الثانى .

(٢٠) يقول الدكتور محمد مندور فى كتابه فن الشعر طبعة المكتبة الثقافية ونشر دار القلم ص ٨ وما بعدها : (.. يظن ان الملحمتين اللتين تعتبران المثل الأعلى لهذا الفن - يعنى فن الملاحم - وهما الالياذة والاوديسة ، لم يبتكرها شاعر بعينه ، وانما ابتكر أجزاءهما المختلفة شعراء شعبيون متعددون ، ثم جاء هوميروس - اذا سلمنا بصحة وجوده التاريخى - فوعى فى ذاكرته كل تلك الأجزاء ، ولربما أضاف اليها أجزاء من ابتكاره ، ثم أخذ يجوب بلاد اليونان ومعه قيثارته أو ربابته منشدا على نغماتها تلك الأشعار الرائعة بما فيها من سحر البساطة ونضرة الجمال الذى يشبه جمال الطفولة ، حتى اذا جاء القرن الخامس قبل الميلاد ، رأى بين ستراتوس حاكم أثينا ، أن يؤلف لجنة من الأدباء والشعراء لتدوين هاتين الملحمتين حفظا لهما من الضياع ، ولما كان الخيال الشعرى قد احتفظ بذكرى هوميروس الشاعر القديم ، وتوارثت الأجيال انباء شهرته الذائعة فقد نسبت الملحمتان اليه) .

(٢١) حصر المستشرق بروكلمان مخطوطات سيرة عنترة فى مكتبات العالم فى نص كامل بدار الكتب المصرية و ٩ قطع متناثرة فى مكتبات برلين وباريس وميونخ ولندن وغيرها . وقد قام الدكتور محمود ذهنى

فى كتابه (سيرة عنترة بن شداد) بمراجعه مخطوط دار الكتب على النسخة الشعبية المتداولة من المكتبة السعيدية ، ولم تخرج المقارنة الا بفروق طفيفة ، وانما أكدت تطابق النسختين واجع سيرة عنترة بن شداد للدكتور محمود ذهنى طبعة المعارف ص ١٢٩ وما بعدها .

(٢٢) فى مصر هناك قصص شعبية محلية لم ترق الى مصاف السير ولا الى أن تكون من الأعمال الشعبية العربية المتداولة فى كل البيئات العربية الأخرى ، وكذلك الحال بالنسبة لكل البيئات العربية المختلفة ، فهذه الأعمال تدور فى اطار بيئاتها ويحفظها رواتها المحليون ، ولكنها لم تستطع قهر حاجز المحلية لتكون شعبية كالسير الشعبية المعروفة . ومنها فى مصر على سبيل المثال : سيرة السيد البدوى ، والفرغلى والمرسى ابو العباس وغيرهم من الأولياء ، وقصص أدهم الشرقاوى وبهية ويسن وشفيقة ومتولى ، وصبر ايوب وغيرها كثير .

(٢٣) هناك سيرة مجهضة ، ان صح التعبير ، عثرت عليها فى قراءاتى عن تاريخ عمان ، هى سيرة مالك بن فهم الأزدى وتحكى رحلته الى عمان ، ومعاركه مع الفرس لتحرير عمان ، ومغامراته هو وأولاده بين عمان وفارس ، وقد وردت هذه السيرة بطريقة مختصرة فى بعض كتب التاريخ العمانى التى حققتها وزارة الثقافة العمانية وطبعتها مؤخرا ، وقد حاولت التعرض لهذه السيرة بتقديم معاصر ، ولكنى وقفت عند الجزء الأول منها فقط ، واحسب انها أكثر ثراء من هذا بكثير ، الا انه من الواضح انها كانت منتشرة فى حدود عمان فقط — راجع للكاتب : فى بلاد السندباد طبعة دار الهلال .

(٢٤) راجع الغصن الذهبى لسير جيمس فريزر ، والأساطير

لأحمد كمال زكى ، وعلم الفولكلور لالكسندر كراب . وغيرها .

(٢٥) راجع كتاب الأصنام لابن الكلبى وراجع فجر الاسلام لأحمد امين ، وتاريخ الأدب العربى لبروكلمان الجزء الاول ، والسيرة النبوية لابن هشام ، وكتب التفاسير فى الاشارة الى عبادات الشمس والقمر والنجوم ، والحديث من هبل ومناة ويغوث والزهرة واللات ، وغيرها من أصنام العرب فى الكعبة وغير الكعبة ، وعن ثالثة الاثافى . وعن القداح .

(٢٦) راجع للكاتب بحث الجذور الشعبية للمسرح العربى ، نشر بعضه فى مجلة البيان الكويتية ، ويطبع البحث كله تحت نفس العنوان فى هيئة الكتاب بالقاهرة . وراجع كتاب (فن كتابة السيرة الشعبية) للكاتب بالاشتراك مع د. محمود ذهنى طبعة دار اقرأ بيروت .

(٢٧ أ) فرض الذوق العربى نفسه فى ضرورة وجود الشعر فى القصة العربية القديمة ، وسنرى فى الكتب التى ذكرت باعتبارها من مجالس معاوية كأخبار ملوك اليمن لعبيد بن شرية ، ان معاوية يطلب من عبيد الشعر فى كل مناسبة تدعو اليه ، ويتردد فى الكتاب قول معاوية لعبيد (سألتك الا تمر بشعر تحفظه فيما قاله الا ذكرته) ، وكأنما القصة لا تصلح عنده الا بالشعر يرد على السنة من يدور بينهم الحديث ، فيقول له : « سألتك الا سددت حديثك ببعض ما قالوا من الشعر ولو ثلاثة ابيات » .. ويكثر الشعر فى كتاب عبيد ، حتى لنكاد نرى تاريخ ملوك اليمن يأتى كتابه على لسان ملوكها شعرا .. ففى قصة عاد الأوسط مثلا يصف عاد حربه مع الفرس فى ٣٣ بيتا ، ثم هو اذ يتوجه الى الشام يقول فى ذلك شعرا يبلغ ٣٥ بتيا ، ثم يقف ليذكر قوته وسطوته وجبروته فى ٣٤ بيتا هكذا ..

وقد أحصينا فى كتاب (فى الرواية العربية عصر التجميع) ، ما جاء من شعر على لسان تبع الأوسط أحد أبطال كتابه الملحميين فكان ٦٩٤ بيتا من الشعر ، وهذا الشعر يروى حياة تبع كاملةوغزواته وفتوحاته ومعاركه ممزوجة بتأملاته وآرائه ، كما تلمح فى هذا الشعر ما يلقى الضوء على معارف العرب فى عصره . وعلى تقاليدهم وعاداتهم .. راجع للكاتب كتاب (فى الرواية العربية ـ عصر التجميع) ، طبعة دار الشروق ـ القاهرة .

(٢٧ب) للدكتور مندور فى كتابه فن الشعر ص ٩ جملة هامة فى هذا المجال اذ يقول : (حتى رأينا شعراء التمثيليات يعترفون بأن مسرحياتهم ما هى ألا فتات تساقط من مائدة هرميروس) .

(٢٨) طبعات فحول الشعراء لمحمد بن سلام الجمحى الجزء الأول . راجع الحيوان للجاحظ الجزء الأول .

(٢٩) حاول الدكتور مصطفى ناصف فى عدة مقالات تقديرية طرق هذا الموضوع ، كما طرقه الدكتور أحمد كمال زكى والدكتور ابراهيم عبد الرحمن ، وكتب الدكتور عز الدين اسماعيل كتابه عن المكونات الأولى للثقافة العربية فى جهد واضح الى هذا الاتجاه ، وكذلك الدكتور عونى عبد الرؤوف فى كتابه البدايات الأولى للثقافة العربية . وخصص الدكتور على البطل صلب رسالته بعنوان (الصورة الفنية فى الشعر العربى) للمحاولة العلمية الجادة فى نفس الاتجاه .. وهناك اجتهادات أخرى مستمرة .

(٣٠) القصة وغيرها كثير من مثيلاتها وردت فى أخبار ملوك اليمن ، المطبوع مع كتاب التيجان لوهب بن منبة فى كتاب واحد . أصدره مؤخرا مركز الدراسات والأبحاث اليمنية بصنعاء .

(٣١) الاتقان فى علوم القرآن الجزء الثانى للسيوطى .

(٣٢) الفهرست لابن النديم طبعة : المطبعة التجارية ص ١٣١ وما بعدها .

(٣٣) فى سيرة سيف بن ذى يزن ، المجلد الأول ، تقول السيرة عن وزير الملك ذى يزن واسمه يثرب «ليس له نظير فى مشرق الأرض ولا مغربها ، وكان اسمه يثرب ، وكان قد قرأ الكتب القديمة ، والملاحم العظيمة ، فوجد فى التوراة والانجيل وصحف ابراهيم الخليل ، وفى مزامير داود عليهما السلام اسم محمد صلى الله عليه وسلم ، وهو من آل قريش من بنى هاشم ووجد صفته وانه يظهر الاسلام والايمان » ونلاحظ هنا ان كاتب السيرة ربط بين الكتب القديمة كما أسماها ، والملاحم العظيمة كما نعتها ، بالملاحم العظيمة وبين صحف ابراهيم والتوراة والانجيل فى نسق واحد كمصادر قديمة للمعرفة .

(٣٤) راجع التيجان لوهب بن منبة طبعة مركز الدراسات اليمنية بصنعاء ويقول الدكتور حسين نصار فى كتابة نشأة التدوين عند العرب فى حديثه عن شواهد اللغات المختلفة عند وهب (قد نخرج من هذه الشواهد ونحن على ما يشبه الاطمئنان من معرفة وهب باللغة العبرية والسريانية . وفى نفسنا شىء من معرفته باللغة الارامية والحميرية ، ومما يزيدنا يقينا بمعرفته اللغات غير العربية ذلك القول فى الكثير من المراجع بانه قرأ الكتب أو العديد منها ، وان تفسيره للكلمات العبرية والسريانية كان صحيحا فى أغلبه ، وربما استمد وهب بعض معارفه مما كان شائعا من قصص بين أهل الكتاب وان لم يوجد فى انجيل أو توراه) .

(٣٥) الجزء الثالث عشر من نهاية الأرب للنويرى .

(٣٦) السيرة النبوية لابن هشام الجزء الأول .

(٣٧) يقول المسعودى فى مروج الذهب : (كان لمعاوية بن ابى سفيان ساعات من كل يوم يعقد فيها مجلسا فيحضر غلمانه الدفاتر فيها سير الملوك واخبارها والحروب والمكائد فيقرأ ذلك عليه غلمان مرتبون) .

(٣٨) الجزء الأول من سيرة ابن هشام .

(٣٩) لاستكمال هذه المرحلة راجع كتاب (فى الرواية العربية عصر التجميع للكاتب) .

(٤٠) راجع رأينا مفصلا فى كليلة ودمنة بين الترجمة والتأليف للكاتب فى كتاب (عالم الأدب الشعبى العجيب) طبعة دار الهلال .

(٤١) أنظر الفهرست لابن النديم ص ٤٢٢ وما بعدها .

(٤٢) راجع الاجزاء الاولى من سيرة عنترة بن شداد وسيف بن ذى يزن .

(٤٣) راجع فى قضايا هذه المرحلة عند ابطال السير للكاتب « كتاب أضواء على السير الشعبية » طبعة اقرأ ـ بيروت .

(٤٤) راجع السير الشعبية للكاتب طبعة دار المعارف ـ وفن كتابه السيرة الشعبية طبعة اقرأ ـ بيروت .

رقم الايداع ٨٨/٧٠٥٤

الترقيم الدولى ٧) ١٩٣٧ ـ ٠١ ـ ٩٧٧

الهيئة المصرية العامة للكتاب

الأدب الشعبى يبدأ فى إبداعه من الفرد الذى ينتهى إلى المجموع ، لأن الأدب لا يكتب نفسه ، بل يبدعه الأفراد ، ولكن حين يصبح هذا الغير متسعا تدريجيا ليشمل المجموع يتبنى المجموع هذا الإنتاج ويتناقله أفراده وهو فى أثناء التناقل يكبر ويتضخم . .

وهذا العمل يظل دائما منطلقا للتعبير عن القضايا المعاشة ، كما يظل دائما هو الأداة الصالحة للاسقاطات السياسية والاجتماعية وللتضمينات العقلية والوجدانية وللتسجيل المستمر والجى والمتطور للعادات والسلوك والتقاليد ، وما يصيب المثل من متغيرات وتطورات ، طبقا لما يصيب المجتمع من تغيرات وتحولات . . مثل هذا العمل بعد مروره بكل هذه الدوائر هو ما يسمى بالأدب الشعبى ومن أبرزه وأكثره تكاملا ما أسميناه « بالسير » الشعبية العربية .

الكتاب القادم :

الشيخ عبد العزيز جاويش

الدكتور حسين فوزى النجار

٥٠ قرشا

مطابع الهيئة المصرية العا